أسئلةُ التلميذِ الشيخَ

(مسائلَ الإيمان)

بقلم

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

المقدمة

الحمد لله حمدا لن يوافي نعمه ولن يكافئ مزيدَه ؛ إلا بنعمته التي لن أوافيها بحمدي ولن تُكافأَ بشكري!

الحمد لله حمدَ العصاة بالذنوب والعصيان ، على الستر الجميل على كل ما كان وما سيكون في مستقبل الأزمان . أحمده وهو يعلم تزوير نفسي إلى نفسي ، وهو يعلم ما أجتنيه من نقص إيماني وبخسي . فبأي وجه أقف بشرف حامد ، وأفعالي أفعال جاحد !

إلهي لولا سعة رحمتك ما شرفتني بحمدك !

ربي لولا عظيم جودك ما أكرمتني بكلمة شكرك !

فسأقولها ، ولو أَحْرَقْتُ وجهي بخجلي منك ربي ، وسأُطلق بها لساني ولو أثقلته صخراتٌ من ذنوب العلن والخلوات ، وسأشق بها حجابًا كثيفا من ظلمات قلبي :

فالحمد لله وحده لا شريك له .

والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا ويرضى .

والحمد لله مِلْءَ السمٰوات وملء الأرض وملء ما شاء من شيء بعد ، أهلَ الثناء والمجد ، أحق ما يقول العبد ، وكلنا لك عبد .

والحمد لله عددَ خلقِه ، والحمد لله رضا نَفْسِه، والحمد لله زِنَـةَ عرشه، والحمد لله مداد كلماته .

وأصلي وأسلّم على خير خلق الله ، ومختاره ومصطفاه : محمد بن عبد الله ، أفضل وأتم وأكمل صلاة وتسليم ، تزيدها البركات ، ولا يتناها تكرارُها بالعدّ ما بقيت الأرض والسمٰوات :

فاللهم صل على محمد ، وعلى أزواجه ، وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد ، وعلى أزواجه ، وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم : إنك حميد مجيد .

أما بعد :

فقد كنت أكتب خواطر من حينٍ لآخر ، أخاطب بها نفسي ، أنصحها بها ، وأُخزي بها وساوس شيطاني . ولكني كنت أكتبها على هيئة خطاب بين تلميذ وشيخ ، فالتلميذ نفسي ، والشيخ هو ما ظننته علما أكرمني الله تعالى به .

وقد كنت في ميعة الصبا والشباب قد وقفت على رسالة الإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) مطبوعة بعنوان «أيها الولد الـمُحِبّ»، وهي نصائح هذا الإمام لأحد طلابه في مسائل الإيمان . وكنت حينئذ أتوق إلى شيخٍ أُلْقِي بلقبي على طَسْته يَغْسِلُه ، وفي فؤادي ظمأٌ إلى موردٍ صافٍ بين يدي قُدوةٍ أرتوي منه . فلما وجدتُ ذلك الكتيّب ، حاولتُ أن أصير به ما كنت أتوق إليه وأتطلّبه من جِلسة التلميذ أمام الشيخ . فكنت أقرؤه ، وأعيد قراءته ، وكأنني أتلذذ بجثوتي عند ذلك الشيخ، وكأنني أسمعه يناديني وهو يقول عند كل نصيحة : «أيها الولد ..»، وكأن تلك العبارة وحدها: «أيها الولد» تجسيدٌ في نفسي لمشهدي مطأطئَ القلب قبل الرأس عند ذلك الشيخ .

لقد عرفتُ بذلك الكتاب ، وبأمثاله – بعد ذلك – من نصائح العلماء لطلابهم : أهميةَ تلك النصائح ، وفائدة حكاية ثمرات تلك المعارف والتجارب . ولكني أعلم أيضًا أني دون تلك المنازل ، وأقل من أن أنصح غيري ونفسي للنصح أفقر . وتالله ما زلتُ – عند نفسي – ذلك «الولد» في علمي وإيماني ، رغم اقترابي من الستين ، وما أحوجني إلى شيخٍ يغسل قلبي ويطهر نفسي ويفتح عيني ويمسك بيدي لأقف ، ثم يقودني إلى الطريق !

لكني وجدت خطاب نفسي لنفسي قد يفيد أيضًا ، وأن أجعله حوار تلميذٍ وشيخه، تَشبُّهًا بـ«يا أيها الولد»! فلربما وجد مخطئٌ في غُسالتي ما يغسل بها قلبه ، ولربما ارتوى ظمآن بكدر مائي ، وقد يبارك الله في القليل فيكون كثيرا بفضله ، أسأل الله أن يكرمني بذلك ، فهو من لا يُتوهم في أبواب جوده إلا امتداد العطاء وانفساحه ، ولن يُظن بيد إنعامه إلا البسط الدائم المؤبّد .

لذلك رأيت جمع تلك الخواطر ، عسى أن تكون نُـقطةً بيضاء في صحائفَ سُودٍ ! والله يعفو ويغفر ، ويرحم ويُجزل ، وهو على كل شيء قدير !

وكتب

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

تم جمعها عصر يوم السبت ١٧/ ٦/ ١٤٤٢هـ

في مكة المكرمة عاصمة الدنيا وقبلة المؤمنين (زادها الله تشريفًا وتعظيمًا)

ألقِ قلبك عند مولاك

سأل التلميذ الشيخ : لماذا كان تعظيم الرب : في الركوع ، وأما الدعاء : ففي السجود ، والسجود أقرب إلى الله تعالى ؟! ولماذا تكرر موطن الدعاء فكان سجدتين ، في حين أن موطن تعظيم الرب كان ركعة واحدة ؟!

فقال الشيخ :

الركوع اعتراف بالعبودية واستحضار لنعمة المعبود ، وأما السجود فاعتراف بها مع استحضار لتمام الافتقار . حيث إن الراكع خضع لخالقه ، لكنه مازال يستحضر نعمة الله عليه قائما ؛ فناسب ذلك تعظيم الرب وحمده . وأما السجود : فهو خرور على الوجه ، وتمكين للجبهة من الأرض ، لا تحضر معه إلا غاية العجز ونهاية الضعف وشدة الفقر ، فكانت محلا للدعاء .

فقال التلميذ : أوليس الذكر خيرا من الدعاء ؟! فالذكر تعظيم الرب ، والدعاء طلب ما ينفع العبد !

فقال الشيخ : الذكر عند العارفين طلب ، هو طلب القرب من المحبوب ، فهم يحضرون في قلوبهم ما يفيض الله عليهم من معارف عظمته ، ليُحضرهم سبحانه في نفسه أو في الملأ الأعلى : « إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» .

فالذكر يا بُني دعاء .

والدعاء يا بني عند العارفين أعظم الذكر ، فالداعي إنما يدعو من حضرت في نفسه عظمته وقُربه وحُبه وجوده وسعة ملكه .

فالدعاء المستجاب يا بني هو ثمرة الذكر ، فلئن كان الذكر استحضارا للعظمة ، فالدعاء

هو استقرار الاستحضار الذي يجعل الذاكر يطلب العظيم موقنا بالعظمة التي تستوجب الفيض بالإجابة .

ولذلك كان الدعاء في السجود ، ولذلك تكرر الدعاء في سجدتين .

يا بني ، لا تسل شيخك في نحو هذا ، فشيخك أعجز عن جوابك من جواب قلبك لك ، لو أقبلت بقلبك على ربك !

يا بني ، ألق قلبك عند مولاك ، فسوف يتلقاه بيمينه ، فماذا تظن من قلب في يمين الله تعالى ؟! هناك تنحسر الظنون ، وتضيق المعارف ، وتتجلى أنوار الفيوض ، وتغيب الأرواح في لذة الأنس والمناجاة .

وفي الآخرة حسنة

قال التلميذ لشيخه : شيخي ، كلما دعوت بقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ، خشيت أن يكون مقصودي هو الدنيا ، وأني ما دعوت بحسنة الآخرة إلى خداعا لنفسي بأني لست ممن ذكرهم الله تعالى في الآية قبلها ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ .

فقال الشيخ : يا بني ، ألست تؤمن بالآخرة ؟! ألست تؤمن بنعيمها وعذابها ؟!

قال التلميذ : بلى ، ولكن ...

فقاطعه الشيخ ، وقال : يا بني ، كل مؤمن بالآخرة فهو ما آمن إلا وهو يريد الفوز فيها بالجنة والنجاة من النار .

يا بني ، أعلم أنك تخشى مما هو أدق من ذلك ، تخشى من الغفلة عن واجب هذا الإيمان ، وهو أن تكون الآخرة في قلبك أعلى وأغلى من الدنيا دائما ، أن تكون الآخرة هي محركك للعمل .. هي مقصدك من طلب الدنيا . لكن يجب عليك أولا أن لا تسمح للوسواس في أن يشككك في إيمانك ، ثم أن تحاسب نفسك على غفلاتك بعد ذلك .

يا بني ، هناك أمر فُطر الناس عليه ، وهو العجلة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ، وهذا يجعلهم يحبون من الثواب عاجله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، وهو أحد وجوه امتحانهم في الدنيا . لكنهم وُهبوا عقلا يدلهم على أن تقديم الثواب العاجل الفاني والتافه على ثواب الآخرة الذي هو خير وأبقى = حمق ، لا يقبله عاقل لنفسه .

يا بني ، فإن شعرت بتقديم الدنيا على الآخرة في غفلة من غفلاتك ، فاطلب العفو من الله تعالى ، وحكّم إيمانك بالآخرة وعقلك ، واسأل الله الثبات . عندها لن تخشى من أن يكون دعاؤك بـ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ خداع نفس : تطلب الدنيا بتشريك الآخرة في الدعاء !

يا بني ، إياك وتنغيص الشيطان عليك مناجاتك ، فدعاؤك لله تعالى بطلب خيري الدنيا والآخرة هو نفسه من عمل الآخرة ، فالدعاء هو العبادة .

يا بني ، كلما وجدت في نفسك غفلة من غفلات الميل للعاجلة ، فأنقذها بيقظة الميل للباقية : بصدقة ، بصلاة ، بذكر ، بسعي في حاجة الناس ، وبالتحبب لليتامى والمساكين .

ولا تيأس من تكرر الغفلات ، ما دمت تتبعها اليقظات ، فأنت في دار الابتلاء القصيرة ، حتى تلقى ربك .

رؤية القرب حجاب

قال التلميذ : شيخي : وعيت عنك سابقا التفريق بين طالب الحاجة وطالب القُرب من مولاه عز وجل :

- وأن طالب الحاجة : يفتر عن التقرب بمجرد حصوله على الحاجة ، أو بتأمله حصولها .

- وأن طالب القرب لا يفتر ، لأنه كلما اقترب ، طلب مزيد قرب .

شيخي ، لقد وعيت ذلك ، وطلبت القرب ، ولكني كلما اقتربت ، ورأيت القرب ، شعرت بالحجب أيضا ! فأنا في عذاب من ذلك !!

فقال الشيخ : يا بني ، رؤيتك القرب إدلال ، لا يحتمله المحبوب ! فلا تفسد طلبك القرب بالمنّ بالحب على المحبوب ، فطالما كان المن بالحب داعيا للإعراض والصد .

يا بني : بعض المنازل دحضٌ مزلّة ، لا تثبت فيها الأقدام ، إلا أقدام أبطال المصابرة والرباط .

فإن استطعت أن تكون منهم ، فهذا هو الغاية القصوى . ولكن هذه الغاية القصوى لن تعرف أنك قد وصلت إليها إلا بالانتقال من حال الغيب إلى حال الشهادة ، بالانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

وإن لم تستطع أن تبلغها ، فلا تجزع من ذلك ، فرباط ساعة خير من عدم رباط ، وتحديث النفس بالرباط كمن حدّثَ نفسه بجهاد ، خير ممن لم يجاهد ولا حدّث نفسه بجهاد .

يا بني ، أتعرف لماذا لا يمكنك أن ترى القرب في الدنيا ؟

قال التلميذ : لعدم علمي وحجاب قلبي أسألك !

فقال الشيخ : يا بني ، المتقرب لذي الجلال ، كلما اقترب اكتشف أنه لا يزال بعيدا ؛ لأنه لن يقترب إلا بإدراكه عظيم بعده عن جلال من يتقرب منه !! لن يقترب إلا بمقدار ما يرى

من ابتعاد قدر عبوديته عن قدر سيّده وخالقه عز وجل ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ . فكيف يرى العبد اقترابًا يريه ابتعاده ؟!

فأسكت الشيخَ بكاءُ التلميذ ، وقال : أستغفر الله على تقربي بحجابي عن تقربي !

قرائن تقرب العبد من مولاه تعالى

(١)

قال التلميذ : شيخي ، عرفت أن الركون إلى القرب بُعد ، وأن استشعار التقريب هو بداية الإبعاد ، وأن الذي فُتح له الباب ، وخطا على بساط القرب = يجب أن يبقى راغبا في مزيد من التقرب ، وأنه من حين الفرح باقترابه ، سيجد نفسه خارج باب القرب (وليس باب الإيمان والإسلام) ، وسيجد نفسه (كما كان) يقرع الباب من جديد ! يسأل الدخول والقرب !! وكأنه ما فُتح له الباب يوما ، ولا شَرُفَ بالمشي على بساط القُرب لحظة !!

فهمت يا شيخي معنى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ، كما فهمه بعض السلف (ويُروى مرفوعا ، على خلاف في صحته) : أن هؤلاء الذين ذكرتهم الآية ليسوا هم الذين يعصون ، فيخافون عقوبة عصيانهم ، وإنما هم الذين يعملون الطاعات ، ويتقربون بأنواع القربات ، ولكنهم (مع ذلك) ما يزالون خائفين من الطرد والإبعاد : فقلوبهم وجلة من يوم اللقاء ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾، حيث سيعلمون يومها علم اليقين ، ويومها فقط : هل اقتربوا ؟ أم ابتعدوا ؟!

وفهمت أخيرًا يا شيخي أن هذا الخوف هو نفسه طاعة وقُربى ، تزيد من القُرب والحب!!

لكن الذي أفزعني يا شيخي : هو كيف أفرّق بين خوف الطائعين وخوف العاصين ؟ كيف أفرق بين خوفي من عدم اقترابي وخوفي من ابتعادي ؟ كيف أعرف أني على درجات الصعود أعلو أم إلى دركات الهبوط أهوي ؟!!

فقال الشيخ (وقد علاه الكرب) : يا بني ، لو عرفتَ ما سألت !!

هذا محط الابتلاء ، وحقيقة التمحيص ، وهو ما سقط فيه إبليس ، وسما فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان سيدَ الخلق وأفضلَ الأولين والآخرين !

يا بني : عِ عنّي ما أقول ! لو عرف المتقربون أنهم قريبون لكان هذا نعيمًا لا يسألون عليه نعيما ، لكان نعيما يقطع التكليف ، وينقلهم من دار الاختبار إلى دار الجزاء ، فلا يبقى ليوم الحساب والثواب والعقاب حكمة ! فماذا يريد العبد أكثر من الجلوس على بساط الرضوان !!

تذكّر يا بنيّ أن بساط الرضوان أعظم من نعيم الجنة ، قال تعالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ الله يقول لأَهْلِ الجَنَّةِ : يا أَهلَ الجَنَّةِ . فَيَقولُونَ : لبيك ربَّنَا وَسَعدَيْكَ ، وَالخَيْرُ في يَدَيكَ ! فيقول : هل رَضِيتمْ ؟ فَيَقولُونَ : وما لنا لا نَرضَى يا ربِّ ؟! وقد أَعطَيْتَنَا ما لم تعْطِ أَحَدًا من خَلْقكَ !! فيقول : ألا أُعْطيكُمْ أَفْضَلَ من ذلك ؟ فيَقُولُونَ : يا ربِّ ، وأَيُّ شيْءٍ أَفْضَلُ من ذلك ؟! فيقول : أُحلُّ علَيْكُمْ رضْوَانِي ، فلا أسْخَطُ علَيْكُمْ بعْدَهُ أَبَدًا » .

فقاطع التلميذ الشيخ قائلا : فكيف النجاة يا شيخ ؟! كيف أعرف أني لست مطرودا ؟ فقد يئست من أن أعرف أني لست قريبًا !! بعد أن فقدت الطمع في معرفة القُرب !!

فقال الشيخ : لو صبرتَ ، لأخبرتك . وتمام الأدب شرطُ تمام الفهم ، فالمعاني العالية لا تثبت إلا في النفوس الزاكية ، كالشجرة الطيبة ، لا تنمو إلا في الأرض الطيبة !!

فبكى التلميذ ، وهم بالخروج من مجلس الشيخ ، يشعر بالحرمان والطرد !!

فنظر إليه الشيخ وقال : امكُثْ بني ، فإنما أردت نفعَك ، وما أردت إيلامك إلا بقصد الإحسان إليك .

فعاد التلميذ ، وجلس ، يُكَفْكِفُ دمعته ، في أدبٍ تامّ ، وإنصاتٍ كامل ، لا تطرف عينه ، ولا يلفت قلبُه .

فعرف الشيخ أنه أصبح مستعدًّا لفهم الجواب !

فقال الشيخ : يا بُني ، هناك ثلاث علامات أعرفها ، وقد يعرف غيري غيرها ، تعينك على النجاح في الاختبار ، بعد أن عرفتَ أنه لا سبيل إلى معرفة النجاح إلا بالانتقال إلى الدار

الآخرة ، ولا طمع لنا باستشعار يقين القرب إلا برفع الحجاب يوم القيامة !

فارتجف التلميذ ، ووضع الشيخ يده على قلبه ، وقال :

العلامة الأولى : ازدياد الحب في القلب ، انشغالُ القلب بواجبات التعظيم ، فلا يرى في طاعته إلا نعمة الله عليه ، ولا يرى في غفلته إلا حلم الله عنه ، ولا يرى في معصيته له إلا تدارك رحمته وإسبال ستره وحبه = فهو في ازدياد من الحب .

ولا تقل لي : كيف أعرف الحب وازدياده ؟ فما عرف شيئًا مَن لم يتيقن من الحب ! وأي يقين أقوى من يقينك بحب من تحب ؟! فكل مسلم حقيقي هو مُحِبٌّ حقيقي ؛ لكنَّ الشيطانَ (وما أعظم كيده) ، وتخليطَ التعليم ، وإساءةَ جهلةِ الوعاظ = كلَّ ذاك هو الذي يكاد يُفقد المسلمين شعورَهم بيقين حبهم لله تعالى !

بُني ، لا تتعجّل ، فأنا أعلم أنك لا تسأل عن حبِّ وتعظيمِ أوّلِ درجات الإسلام ، وهو الذي يستقر في قلب كل مسلم . ولكنك تسأل عن حب المتقرّبين ، وعن تعظيم الذين فُتح لهم باب القُرْب وقبّلوا على ذلك البساط تلك العَتَبات . فإنك إذا استطعت أن تشعر بحب أول درجات الإسلام ، وتغلب كيدَ الشيطان الذي يُريد إخفاء شعورك به وتشكيكَك فيه ، وأن تتجاوز إساءة من أساؤوا تعليمك وتخليطَ من خلّطوا في وعظك = فستعرف أن شعورك بالحب مما لا يمكن أن تشك في تفاوت مراتبه في قلبك !

ألا تذكر لحظة شعرت فيها بجمال الله تعالى ، فتمنيت نعيم النظر إليه ؟!

ألا تذكر لحظة تلبّستَ برحمته عليك ، فاشتقت إلى لقائه ؟!

ألا تذكر لذة مناجاته في بعض سجداتك ، في التزامك بباب الكعبة وعلى جدرانها ؟!

ألا تذكر فرحة دمعة سفحتها في محراب الصلاة بينك وبين ربك ؟!

هذه هي ساعات القرب ولحظات الأنس !!

لا تَنْسَها ! فهي عيانُ الحب الذي يغنيك عن كل أخباره ، وليس الخبر كالمعاينة !!

الخلاصة : هذه العلامة هي أعمال القلوب ، لا أعمال الجوارح ، وهي أقوى العلامات !!

لأنها لا يمكن أن تتخلف !! وعليها تنبني بقية العلامات !!

العلامة الثانية : كثرة اللجوء إلى الله في سؤال الهداية والثبات .

ألا ترى أن أكثر وأجل ما يدعو به المؤمن هو طلب الهداية ، فطلبها هو الطلب الوحيد الوارد في أعظم سور القرآن وفاتحة القرآن التي تُقرأ في كل ركعة فريضة أو نافلة !! فبعد أن يحمد العبد ربه تعالى : ﴿الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وبعد ثنائه عليه سبحانه : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وبعد تمجيده عز وجل : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، وبعد إعلان إفراده بالعبادة وتوحيده بالاستعانة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، لا يرد ألا سؤالٌ واحد ، هو : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهّ ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» . وما أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرهم بذلك حتى في يمينه ، يقول عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) : أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ: «لاَ ، وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ! » .

ومن أسرار هذا السؤال : أن الصدق فيه ينافي التبجح بالقرب كل المنافاة ، فكيف يتبجح ويمتنُّ بالقرب من يخشى الطرد كل الخشية ؟!

العلامة الثالثة : جاءت في كتاب الله تعالى عقب آية الخوف لصيقةً بها ، مجيبةً لسؤال الخائفين عن علامة القرب وتمييزها عن علامة البُعد ، يقول تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾.

ألا ترى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ ؟

إذن فالازدياد من عمل الطاعات : من علامات الاقتراب ، والمسارعة إليها : من دلائل ولوج الباب ، والمسابقة إليها : من إشارات التسامي في منازل الأحباب !

يا بني ، ستقول : لماذا لا تكون هذه هي الدليل ؟ وليست مجرد علامة ؟! ستقول : لماذا

وهي صريحة في كتاب الله تعالى تذكر سمات الرفيق الأعلى من الصّدّيقين والشهداء والصاحين؟!

يا بُني : تذكّرْ :

أولا : أن الآية لم تذكر أعمال الجوارح فقط ، فالمسارعة للخيرات تكون بأعمال القلوب والجوارح معًا ، وقد ذكرت لك أعمال القلب في أول علامة ، وقلت لك : إنها أقوى العلامات .

ثانيا : هل نسيتَ (الخوارج) وهم من أكثر الناس أعمالَ جوارح ، حتى فاقوا بذلك من كانوا أكثر أعمال قلوب منهم ، وهم الصحابة (رضوان الله عليهم) .

فكثرة أعمال الجوارح ليست وحدها هي العلامة ، ولا هي أقواها ! لكنها من العلامات ، مع بقية العلامات .

يا بني ، وكلها مجردُ علاماتٍ ، كافيةٍ لعدم اليأس ، مانعةٍ من القنوط ؛ لكنها لا تريك القرب ، ولا يمكن أن تُشعرك بتجاوز الاختبار ، ولا يصح أن تطلب ذلك أصلا ، وأنت في قاعة الامتحان (الدنيا) .

فقام التلميذ يريد تقبيل رأس شيخه ، وقد قبّله من قبلُ بفؤاده : حبا وإجلالا ! فمنعه الشيخ ، وقال له : يا بني ، رب متحدث عن ذوقٍ ، كان قد ذاق .. ثم حُرم ، فصار يحسن الوصف ، لكنه فاقد الذوق !

اللهم أسألك عفوك وسترك الجميل !!

قرائن تقرب العبد من مولاه تعالى

(٢)

قال التلميذ : شيخي ، عرفت أن الركون إلى القرب بُعد ، وأن استشعار التقريب هو بداية الإبعاد ، وأن الذي فُتح له الباب ، وخطا على بساط القرب = يجب أن يبقى راغبا في مزيد من التقرب ، وأنه من حين الفرح باقترابه ، سيجد نفسه خارج باب القرب (وليس باب الإيمان والإسلام) ، وسيجد نفسه (كما كان) يقرع الباب من جديد ! يسأل الدخول والقرب!! وكأنه ما فُتح له الباب يوما ، ولا شَرُفَ بالمشي على بساط القُرب لحظة !!

فهمت يا شيخي معنى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ، كما فهمه بعض السلف (ويُروى مرفوعا ، على خلاف في صحته) : أن هؤلاء الذين ذكرتهم الآية ليسوا هم الذين يعصون ، فيخافون عقوبة عصيانهم ، وإنما هم الذين يعملون الطاعات ، ويتقربون بأنواع القربات ، ولكنهم (مع ذلك) ما يزالون خائفين من الطرد والإبعاد : فقلوبهم وجلة من يوم اللقاء ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾، حيث سيعلمون يومها علم اليقين ، ويومها فقط : هل اقتربوا ؟ أم ابتعدوا ؟!

وفهمت أخيرًا يا شيخي أن هذا الخوف هو نفسه طاعة وقُربى ، تزيد من القُرب والحب!!

لكن الذي أفزعني يا شيخي : هو كيف أفرّق بين خوف الطائعين وخوف العاصين ؟ كيف أفرق بين خوفي من عدم اقترابي وخوفي من ابتعادي ؟ كيف أعرف أني على درجات الصعود أعلو أم إلى دركات الهبوط أهوي ؟!!

فقال الشيخ (وقد علاه الكرب) : يا بني ، لو عرفتَ ما سألت !!

هذا محط الابتلاء ، وحقيقة التمحيص ، وهو ما سقط فيه إبليس ، وسما فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان سيدَ الخلق وأفضلَ الأولين والآخرين !

يا بني : عِ عنّي ما أقول ! لو عرف المتقربون أنهم قريبون لكان هذا نعيمًا لا يسألون عليه نعيما ، لكان نعيما يقطع التكليف ، وينقلهم من دار الاختبار إلى دار الجزاء ، فلا يبقى ليوم الحساب والثواب والعقاب حكمة ! فماذا يريد العبد أكثر من الجلوس على بساط الرضوان !!

تذكّر يا بنيّ أن بساط الرضوان أعظم من نعيم الجنة ، قال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ الله يقول لأَهْلِ الجَنَّةِ : يا أَهلَ الجَنَّةِ . فَيَقولُونَ : لبيك ربَّنَا وَسَعدَيْكَ ، وَالخَيْرُ في يَدَيكَ ! فيقول : هل رَضِيتمْ ؟ فَيَقولُونَ : وما لنا لا نَرضَى يا ربِّ ؟! وقد أَعطَيْتَنَا ما لم تعْطِ أَحَدًا من خَلْقكَ !! فيقول : ألا أُعْطيكُمْ أَفْضَلَ من ذلك ؟ فيَقُولُونَ : يا ربِّ ، وأَيُّ شيْءٍ أَفْضَلُ من ذلك ؟! فيقول : أُحلُّ علَيْكُمْ رضْوَانِي ، فلا أسْخَطُ علَيْكُمْ بعْدَهُ أبَدًا » .

فقاطع التلميذ الشيخ قائلا : فكيف النجاة يا شيخ ؟! كيف أعرف أني لست مطرودا ؟ فقد يئست من أن أعرف أني لست قريبًا !! بعد أن فقدت الطمع في معرفة القُرب !!

فقال الشيخ : لو صبرتَ ، لأخبرتك . وتمام الأدب شرطُ تمام الفهم ، فالمعاني العالية لا تثبت إلا في النفوس الزاكية ، كالشجرة الطيبة ، لا تنمو إلا في الأرض الطيبة !!

فبكى التلميذ ، وهم بالخروج من مجلس الشيخ ، يشعر بالحرمان والطرد !!

فنظر إليه الشيخ وقال : امكُثْ بني ، فإنما أردت نفعَك ، وما أردت إيلامك إلا بقصد الإحسان إليك .

فعاد التلميذ ، وجلس ، يُكَفْكِفُ دمعته ، في أدبٍ تامّ ، وإنصاتٍ كامل ، لا تطرف عينه ، ولا يلفت قلبُه .

فعرف الشيخ أنه أصبح مستعدًّا لفهم الجواب !

فقال الشيخ : يا بُني ، هناك ثلاث علامات أعرفها ، وقد يعرف غيري غيرها ، تعينك على النجاح في الاختبار ، بعد أن عرفتَ أنه لا سبيل إلى معرفة النجاح إلا بالانتقال إلى الدار

الآخرة ، ولا طمع لنا باستشعار يقين القرب إلا برفع الحجاب يوم القيامة !

فارتجف التلميذ ، ووضع الشيخ يده على قلبه ، وقال :

العلامة الأولى : ازدياد الحب في القلب ، انشغالُ القلب بواجبات التعظيم ، فلا يرى في طاعته إلا نعمة الله عليه ، ولا يرى في غفلته إلا حلم الله عنه ، ولا يرى في معصيته له إلا تدارك رحمته وإسبال ستره وحبه = فهو في ازدياد من الحب .

ولا تقل لي : كيف أعرف الحب وازدياده ؟ فما عرف شيئًا مَن لم يتيقن من الحب ! وأي يقين أقوى من يقينك بحب من تحب ؟! فكل مسلم حقيقي هو مُحِبٌّ حقيقي ؛ لكنَّ الشيطانَ (وما أعظم كيده) ، وتخليطَ التعليم ، وإساءةَ جهلةِ الوعاظ = كلَّ ذاك هو الذي يكاد يُفقد المسلمين شعورَهم بيقين حبهم لله تعالى !

بُني ، لا تتعجّل ، فأنا أعلم أنك لا تسأل عن حبِّ وتعظيمِ أوّلِ درجات الإسلام ، وهو الذي يستقر في قلب كل مسلم . ولكنك تسأل عن حب المتقرّبين ، وعن تعظيم الذين فُتح لهم باب القُرْب وقبّلوا على ذلك البساط تلك العَتَبات . فإنك إذا استطعت أن تشعر بحب أول درجات الإسلام ، وتغلب كيدَ الشيطان الذي يُريد إخفاء شعورك به وتشكيكَك فيه ، وأن تتجاوز إساءة من أساؤوا تعليمك وتخليطَ من خلّطوا في وعظك = فستعرف أن شعورك بالحب مما لا يمكن أن تشك في تفاوت مراتبه في قلبك !

ألا تذكر لحظة شعرت فيها بجمال الله تعالى ، فتمنيت نعيم النظر إليه ؟!

ألا تذكر لحظة تلبّستَ برحمته عليك ، فاشتقت إلى لقائه ؟!

ألا تذكر لذة مناجاته في بعض سجداتك ، في التزامك بباب الكعبة وعلى جدرانها ؟!

ألا تذكر فرحة دمعة سفحتها في محراب الصلاة بينك وبين ربك ؟!

هذه هي ساعات القرب ولحظات الأنس !!

لا تَنْسَها ! فهي عيانُ الحب الذي يغنيك عن كل أخباره ، وليس الخبر كالمعاينة !!

الخلاصة : هذه العلامة هي أعمال القلوب ، لا أعمال الجوارح ، وهي أقوى العلامات !!

لأنها لا يمكن أن تتخلف !! وعليها تنبني بقية العلامات !!

العلامة الثانية : كثرة اللجوء إلى الله في سؤال الهداية والثبات .

ألا ترى أن أكثر وأجل ما يدعو به المؤمن هو طلب الهداية ، فطلبها هو الطلب الوحيد الوارد في أعظم سور القرآن وفاتحة القرآن التي تُقرأ في كل ركعة فريضة أو نافلة !! فبعد أن يحمد العبد ربه تعالى : ﴿الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وبعد ثنائه عليه سبحانه : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، وبعد تمجيده عز وجل : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، وبعد إعلان إفراده بالعبادة وتوحيده بالاستعانة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، لا يرد ألا سؤالٌ واحد ، هو : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» . وما أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرهم بذلك حتى في يمينه ، يقول عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) : أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ: «لاَ ، وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ! » .

ومن أسرار هذا السؤال : أن الصدق فيه ينافي التبجح بالقرب كل المنافاة ، فكيف يتبجح ويمتنُّ بالقرب من يخشى الطرد كل الخشية ؟!

العلامة الثالثة : جاءت في كتاب الله تعالى عقب آية الخوف لصيقةً بها ، مجيبةً لسؤال الخائفين عن علامة القرب وتمييزها عن علامة البُعد ، يقول تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾.

ألا ترى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ ؟

إذن فالازدياد من عمل الطاعات : من علامات الاقتراب ، والمسارعة إليها : من دلائل ولوج الباب ، والمسابقة إليها : من إشارات التسامي في منازل الأحباب !

يا بني ، ستقول : لماذا لا تكون هذه هي الدليل ؟ وليست مجرد علامة ؟! ستقول : لماذا

وهي صريحة في كتاب الله تعالى تذكر سمات الرفيق الأعلى من الصّدّيقين والشهداء والصاحين؟!

يا بُني : تذكّرْ :

أولا : أن الآية لم تذكر أعمال الجوارح فقط ، فالمسارعة للخيرات تكون بأعمال القلوب والجوارح معًا ، وقد ذكرت لك أعمال القلب في أول علامة ، وقلت لك : إنها أقوى العلامات.

ثانيا : هل نسيتَ (الخوارج) وهم من أكثر الناس أعمالَ جوارح ، حتى فاقوا بذلك من كانوا أكثر أعمال قلوب منهم ، وهم الصحابة (رضوان الله عليهم) .

فكثرة أعمال الجوارح ليست وحدها هي العلامة ، ولا هي أقواها ! لكنها من العلامات ، مع بقية العلامات .

يا بني ، وكلها مجردُ علاماتٍ ، كافيةٍ لعدم اليأس ، مانعةٍ من القنوط ؛ لكنها لا تريك القرب ، ولا يمكن أن تُشعرك بتجاوز الاختبار ، ولا يصح أن تطلب ذلك أصلا ، وأنت في قاعة الامتحان (الدنيا) .

فقام التلميذ يريد تقبيل رأس شيخه ، وقد قبّله من قبلُ بفؤاده : حبا وإجلالا ! فمنعه الشيخ ، وقال له : يا بني ، رب متحدث عن ذوقٍ ، كان قد ذاق .. ثم حُرم ، فصار يحسن الوصف ، لكنه فاقد الذوق !

اللهم أسألك عفوك وسترك الجميل !!

حُجِبْتُ !

قال التلميذ للشيخ : شيخي ، حُجبتُ ؟! أكون في العبادة ، فما أن أشعر بالاقتراب حتى أشعر بالحجاب ؟

فقال الشيخ : يا بُني ، ما حُجبتَ إلا بذنب ، فأنت من حجبت نفسك ، فلا حق لك في العتاب على الحجاب .

ولكن ما دمت قد عرفت ربك بتوحيده فلن يسلط عليك ذنبك بأكثر من حجاب العتاب ، ولا يعاتبك إلا المحب .

ولو عقلت لعلمت أن هذا الحجب هو في حقيقته تقريب ، لأنه يذكرك بحب الله تعالى لك .

لكن المحجوب حقا من انحجب بحجب العتاب ، وقابل حجبه بزيادة إعراض ، فحال مثله هو حال من واجه حجاب الحب بالرضا بهذا الحجاب ، وكأنه لا يأبه بالعتاب ! وهذا هو المستحق للحجب الحقيقي !

يا بني تضرع

قال التلميذ لشيخه : شيخي ! كلما تضرعت في الدعاء ، تدعوني الثقة بالإجابة إلى الفتور، وكأني أقول لنفسي : ثقتي بجود الله تعالى وبعظيم صفحه وبسبق رحمته تجعلني لا أشك في إجابته ، فإن أجابني بما تضرعت به إليه ، فقد حزت خيري الدنيا والآخرة ، فلماذا أستمر في التضرع ؟! وإن لم يُستجب لي بعد جهدي هذا في الخشوع والتضرع ، فأنا محروم ، لا طمع لي في نظر الله تعالى بإجابة دعاء !

فقال الشيخ : يا بني ، الثقة بالإجابة لا تغنيك عن لذة المناجاة وشرف القُرب وأُنس الشعور بسماع الخطاب وجلالة الوقوف على بساط الحضرة ..!!

يا بني ! إن لم يُذقْكَ تضرعُك ما هو أعظم من الإجابة ، فإنك لم تتضرع بعد !

يا بني ! كيف تغنيك الإجابة عن التضرع ، وهي لو حصلت .. فقد استوجبت منك تضرع الحمد ، وذلة الشكر ، وخضوع الحب ، ورغبة قبول القرب ، وخشية عقوبة الصد !!

يا بني ! لا تخش من الغفلة ، ولكن اخشَ فتور الاستغناء عن الخضوع !!

فما استغنى ؛ إلا مخذول مستكبر ، وأنت ما علمتُك إلا مستمسكا بعرى الافتقار ، متجلببا بعباءة الاحتياج ، تحطم في نفسك شموخ الكبرياء ، وترغم فيها أنف التعالي !!

يا بني ! تضرع ، ولا تكتف من جود من بيده ملكوت السماء والأرض وملكوت كل شيء ، فأنت لا تدري .. ولا يخطر على قلبك : كم فاتتك .. وكم ستفوتك من عظيم العطايا بكل لحظة غفلة منك !

أرأيت الملك من ملوك الأرض ، ذا الثراء البالغ والسلطان العريض ، إذا قال لك : «لأجعلنّك ترى من النعمة ما لم تره قط ، وما لا تظن أنك ستراه !»، ألن تصدقه ؟ ما دام يملك ما لا يخطر على بالك من صنوف النعم ! فكيف بمالك الملك وخالق الخلق عز وجل ؟! فكيف تكتفي من عظيم ملكه بتافه طلبك وقليل دعائك ؟! فوالله ! لو اشتغلت بالطلب من

الله تعالى مائة سنة ، ولو أجابك سبحانه في كل ما طلبته ، ما بلغت شيئا مما يمكن أن يجود عليك من خزائن ملكه التي لا تنفد !

وما أوكسه من ربح : إن رضيتَ بحقير ما رأيت ، وبقليل ما سمعت ، وبتافه ما يخطر على بالك ، وبصغير طلبك (مهما استكبرته) ، من خزائنَ مُلكٍ : لا عين رأتها ، ولا أذن سمعت عنها ، ولا خطر ما فيها على قلب بشر ، ولا يحيط بها خلق ، ولا تنحصر على امتداد العدّ ، ولا تنقص مع اتصال العطاء ، ولا تزيد بالمنع ، ولا يأخذ مرور الزمان منها شيئًا ؛ إلا إذا استطاع الزمان أن يسلب من الخلود شيئًا ، ولا يحويها مكان ، والمكان هو أحد موجوداتها !!

يا بني ! التضرع هو استحلاب ضرع العطايا ، ومفتاح تلك الخزائن ، فلا تبخس نفسك بالرضا بقليل طلبك عن كثير ما فيها !!

لا تغلق الباب

قال التلميذ لشيخه : شيخي ، أرهقني خوف الحرمان والطرد ، أتذكر ذنوبي وتقصيري ، فأعلم أنني لو حُرمت فبعدل حُرمت ، وأني إن طُردت فهذا هو ظلمي لنفسي !

فقال الشيخ : يا بُني ، خوف حرمان الذنوب وطرد المعاصي خوفان ، وبينهما كما بين السماء والأرض ، أحدهما هو النجاة ، والآخر هو المهلكة !

فإذا كنت عندما تخاف الذنب وعقوبته تزداد لجأً لله تعالى ، وتنكسر على بابه ، وتطيل البكاء طلبا للعفو والغفران ، ولا تنصرف عنه إلى غيره = فهذا هو خوف النجاة ، وهذه هي خشية الله ، لا حرمني الله وإياك منها !

وأما إن كنت عندما تخاف الذنب ، تنصرف عن قرع الباب ، وتجد أن قلبك بادر بالإعراض ، وترك وقفة الذل وطلب الصفح وتقديم المعاذير = فهذا هو خوف الهلكة ، وهو اليأس من روح الله ، وهو سر عدم توبة إبليس : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

يا بني ، خوفك من عقوبة ذنبك يجب أن يفتح لك باب الرجاء في ربك ، لا أن يغلقه ؛ لأن ربك قد أخبرك أن بابه لن يُغلق دونك أبدا ، وهو مفتوح لك أبدا ، وأنه أوسع من خطاياك ولو بلغت عنان السماء ؛ إلا إذا أنت نفسك أغلقته عن نفسك ! ولن تغلقه إلا بإعراض اليأس ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

وسواس

قال التلميذ : شيخي ، عرفت أن من شروط استجابة الدعاء اليقين بالإجابة ، لكن يخطر لي وسواسٌ أخشى أنه يُفقدني اليقين !

قال الشيخ : هاتِ يا بني ، فرب وسواس أصاب الإيمانَ في مقتل ، بغير وقايةٍ من توفيق وعلم !

قال التلميذ : أقول في نفسي : لا يوجد مسلم إلا وهو يسأل الله في الدنيا حسنة ، يسأله رزقا وعافية ، وهاهم الأغنياء هم أقل الناس ، والمرضى تمتلئ بهم المشافي وتُزار بموتاهم المقابر ! فما الذي يجعلني أولى بالإجابة من هؤلاء جميعا ؟!!

يقول لي هذا الوسواس : أنا أسأل كما يسأل غيري ، فما الذي يجعلني أحظى بالإجابة من الأكثرين ممن لم يُستجب لهم ؟!!

فقال الشيخ : يا بني ، ما أسهل دفع الوسواس !

أولا : تذكّر ما صح عن نبيك ﷺ أنه قال : «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ – لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ – ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا» . قَالُوا: إِذن نُكْثِرُ، قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ» .

فما أدراك أن الله تعالى قد استجاب لجميعهم ، وهذا هو الظن في الكريم سبحانه ، بإحدى هذه الثلاث التي لا يعلم خيرها إلا الله تعالى .

ثانيا : يا بني ، رب داع له من ربه باب لا يعرفه إلا هو ، ورب دعوة لا تخطئ أبواب السماء ، فأحسن الظن بربك ، واستشعر حبه لك ، تجد لك في دعائك معنى ، لا يهمك معه ماذا يجد الناس له من المعاني ، وماذا أجيبوا ، وماذا أُجبتَ : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ .

ثالثا : يا بني ، رأيت جلساء الملوك والأمراء ، يجلسون معهم الأزمنة الطويلة ، ينافقون ،

ويتزلفون ، ويصبرون على ذل الحجب والوقوف على الباب مرات كثيرة ، وعلى الدفع في الصدر والمزاحمة بالأكتاف ، ويتعرضون لخطر البطش لأي سبب ، ولألم الترفّع والتعالي ، بل السخرية والإهانة ولا يستطيع الرد ولا الانتصاف لنفسه = كل ذلك على أمل تحقيق المطلوب، وانتفاعا منه باسم أنه جليس السلطان أو الأمير ، وانتفاخا أمام الناس بكونه قال كذا للملك ، وقال له الملك كذا !!

أفلا يكون أجرك من الدعاء في مناجاة ملك الملوك (وهي أشرف وأعز مناجاة) ، وفي مخاطبة الرب عز وجل (وهو أكرم خطاب) ، وفي التعرض لنفحات أكرم الأكرمين (وهي النفحات التي تفوق ملك الدنيا بحذافيرها) = كافيا لك في مداومة الدعاء والحرص عليه غاية الحرص :

- تخيل بدعائك أنك في حضرته تعالى وتقدس !

بل والله لو تخيلت أنك فقط في حضرة عرش الله ، وأنك تقف على بساط القرب = لكفاك لذة وأنسا يغنيك عن كل طلب !

وأنت في الحقيقة في دعائك كذلك ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ؛ ألا ترى قوله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ، كررها يا بني مرات : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ، ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ . تجد أنها أعظم وأجل مما تأخر عنها ذِكرًا ورُتبة ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

- بل تمثّل أن الله تعالى في حال الدعاء يخصك بالإقبال عليك بوجهه !

ألم يقل النبي ﷺ : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم : «لَا يَزَالُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ ، انْصَرَفَ عَنْهُ » . والمقصود بالتفات العبد التفات القلب منه ، وما يُوصل إليه ويدل عليه من التفات الوجه والبصر .

ولذلك فتذكر يا بني أن هذا المجلس من ربك هو أغيظ ما يغيظ عدوك (الشيطان) ،

قالت أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلاَةِ ؟ فَقَالَ: « هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ العَبْدِ » .

- استحضر أنك في دعائك مسموع الصوت من الخلاق العليم سبحانه ! قال تعالى ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ .

ولذلك لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يرفعون أصواتهم بالدعاء ، أراد تذكيرهم بهذه الحقيقة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، [إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ] » . [اربَعوا ، أي : ارفقوا] .

- بل استحضر أن الله تعالى يجيبك بكل كلمة : فإذا قلت : ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأحضر في قلبك الله تعالى الآن يقول لك : حَمدني عبدي ، فإذا قلت : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فالله عز وجل يجيبك بقوله : أثنى على عبَدي ،فإذا قلت : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإن ربك يقول للملأ الأعلى عنك : مجدني عبدي ، فإذا قلت : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، خاطبك الله عز وجل بقوله : هذه بَيْني وبينَ عَبْدي ، ولعَبْدِي ما سأَلَ !!

والله لو استحضرنا ذلك كما يجب ، لما تركنا هذا المجلس حتى نلقاه !

يا بني ، لا تسمح للوساوس أن تكدّر عليك هذا المجلس ، لا تمكّن الشيطان أن يخطفك من هذا الأنس .

فقال التلميذ : ما أتعسني إن فعلت !!

وحوش الخلوات

ذنوب الشهوات هي وحوش الخلوات ، لكنها لا تدرك كل من فر منها إلى ربه ، مهما تكاثرت ، ومهما تكرر تكاثرها . وأما من فر من وحوش الخلوات إلى يأسه ، فقد هلك .

سمع التلميذُ الشيخَ يقول ذلك ، فقال : شيخي ، أخجل من كثرة العصيان ، وأصعب من ذلك أني أشعر بالطرد والإبعاد ، وإلا لما أسرفت بتكرار المعصية ؟!!

فقال الشيخ : ابني :

- خجلك من ربك بعد الذنب توبة .

- وأما خجلك منه قبل الذنب فعصمة .

-وأما خجلك بعد الذنب من الطمع في رحمته ، فهو الااستكبار ، وليس خجلا ؛ لأنه قد أخبرك بأنه لا يمنعك من بابه إذا أقبلت عليه ، مهما عصيته ، فلماذا تخجل من الوقوف ببابه ، وهو مفتوح لك ؟! هذا (لو صَدَقتَ نفسَك) ليس فِعْلَ المستحين ، وإنما هو فعل المستكبرين .

يا بني : لا تجعل الشيطان يدخل عليك من باب الحياء ، ليخرجك منه إلى انعدام الحياء ، وهو الاستكبار والمبارزة بالعصيان على وجه العناد !

يا بني : ما طردك من جعل بابه مفتوحا لك حتى تغرغر ، أنت من توصد الباب دونه ، بيأسك من رحمته .

يا بني : رب عبد أدخله الجنة مكابدة الطاعات ، ورب عبد أدخله الجنة مكابدة المعاصي : كلما عصى ندم واستغفر ، وذل وتواضع ، وأحب الصالحين ، ورحم إخوانه العصاة .

يا بني : المهم أن لا تجعل لليأس إليك سبيلا ، وأن تتبع السيئة الحسنة ، وأن تكثر من الاستغفار ، واجعل عُظْمَ رجائك توبةً نصوحا ، تغسل حوبتك ، وتطهر قلبك ، وتزكي نفسك !

في جميع حالك !

قال التلميذ : شيخي ، لماذا أجد قلبي أكثر حضورا في الركوع منه في السجود والقيام ، وأجد له لذة لا أجدها في غيره ، مع أن السجود أفضل من الركوع ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، أنت شخص سريع الغفلات ، والغافل يذكر عند اختلاف الحال ، ثم يعود إلى غفلته . فعندما تبدأ الصلاة تذكر قليلا ، ثم تسرقك الغفلة ، فإذا انتقلت إلى حركة الركوع شعرت بالغفلة ، فتيقظت ، والركوع قصير ، ولا يتكرر في الركعة الواحدة ، فيسهل عليك حضور قلبك فيه . فإذا رفعت منه عدت إلى غلفتك ، وقد اعتدت بعده على حركة الانتقال ، فلا يوقظك بعدها هويك إلى السجود ، وتَكرُّر السجود يغويك بتسويف اليقظة من سجدة إلى التي تليها ، والتسويف بلاء الغافلين وداء الساهين !!

يا بني : أنت على خير ، تلذذ بالركوع ، أطله ، وأكثر فيه من التسبيح والحمد والتمجيد للربك ، فهو موطن إعلان الشوق لله تعالى ! ففي الركوع لا أنت جاث على ركبتيك ، لا تستطيع المشي ، ولا أنت قائم ، تخجل من النظر للحبيب ، فكيف بالمشي إليه . أنت في الركوع قد أخذتك غشية اللقاء ولذة مناجاة الحبيب ، فتجرؤ على مناجاته ، ومع ذلك فأنت تشعر أنك لم تعجز عن المشي إليه ، بقيامك على قدمي قلبك !

يا بني : رب قلب أصلحه الركوع أكثر من السجود ، فلا يزهدك الشيطان في هذا الخير . ولكن اجعل هذا الخير داعيا لك إلى خير أجل منه ، وهو أن تجمع إلى حضور القلب في الركوع حضورَه في السجود والقيام والجلوس وجميع حالك !!

غفلة

اجتمع التلامذة حول الشيخ ، كاجتماع الظمآى حول مورد الماء ، وكان الشيخ كعادته ، يبدأ متفكرا ، كما ينتهي غارقا في تفكره . والطلاب حوله يستجلون فكرته من تعابير وجهه ، ومن حرارة أنفاسه .

إلى أن قال أحدهم : شيخي ، ما بال المرء يبدأ الصلاة حاضرا ، ثم في ربعها الثالث يغفل ، ثم يعود للحضرة في الركعة الأخيرة ؟

فقال : يا بني ، هذا خرج بركعته الأخيرة رابحا فقط ، فهو قد أعجبته ركعتاه الأوليان ، واستثقلهما في ميزانه ، فضُربت عليه الغفلة ، وعوقب بالصد ، ثم أراد استدراك ما فاته في الأخيرة ، وانكساره فيها خير من ركعاته كلها .

فقال تلميذ آخر : شيخنا ، وآخر يبدأ غافلا ، ثم يستحضر ؟

فقال : يا بني ، هذا تشعبت همومه في كل واد ، فلا يستطيع تجميعها في هم واحد ؛ إلا بعد لأي !

فقال التلميذ : فبماذا تنصحه شيخنا ؟

فقال الشيخ : ليبدأ بتجميع همومه بوضوء ، ولو كان على وضوء ، بركعتي نافلة ، بذكر قبلي ، بل قد ينفعه أن يتطيب قبل صلاته ، أن يأخذ من ثيابه أطيبها ، ألا ترى ربنا تعالى يقول ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ .

فقال تلميذ آخر : شيخنا ، فمن يبدأ حاضرا ، ثم سرعان ما يغفل أثناء الفاتحة ، ثم يعود مستحضرا في أول السورة ، فيعود للغفلة ، وهكذا لا يثبت على حضور ولا غفلة ، حتى نهاية صلاته ؟

فقال الشيخ : هذا لم يستحضر يا بني ، بل هو في توهم الاستحضار ؛ فإن للاستحضار لذة ، لا يفرط فيها من عرفها ؛ إلا إذا ألهته لذتها عن حقيقتها .

يا بني ، قل له : الاستحضار ليس هو عدم السهو ، بل هو السهو عما سوى الحضور ، ومن حضر عند عتبة الدار ، لن يرضى بغير تكرار طرق الباب . فكيف إذا فُتح له الباب ؟! فكيف إذا بدأ الخطاب ؟!!

فقال تلميذ آخر : شيخنا ، فمن كان يغفل عامة الصلاة ، ولا يحضر إلا في السجدة الأخيرة ؟

فقال : يا بني ، هذا لم يعرف أنه محتاج لاجتماع الهم لكي لا يهتم . هذا يظن تشتت الهم سيدفع عنه الهموم ، ولم يعلم أن جيش الهموم لن يندفع إلا بمواجهتها بهم واحد .

يا بني ، قل له : وحد الهموم ، لتتفرق عنك الغموم . كن مع الله ، تر الله معك !

يا بني ، قل له : اجعل آخر صلاتك أولها ، فلعله يعرف أنه قدم ما حقه التأخير ، فلا يفرط في الربح للخسارة .

فقال التلميذ الأخير : سيدي ، فماذا يقول : من لا يصحو ؛ إلا عند السلام والانصراف من الصلاة ؟!

فقال الشيخ : هذا هارب من مولاه ، وكان يجب أن يفر إليه !!

يا بني ، لو عرف هذا أن إقباله في الظاهر لا يغني عن إدباره في الباطن شيئا ، لما رضي بهذا البخس . هذا كمن قرع الباب ، ثم استدبره ؛ فقرعه الباب محمود ، لكن استدباره له بعد القرع سوء أدب !!

ولولا رحمة الله وكماله عز وجل ، لكان هذا أولى بالعقوبة ممن لم يقرع الباب أصلا !! لكن الله يحب المعاذير ، ويقبل المحاولة ولو فشلت ، ويرفع الإثم عمن طرق الباب ؛ فقد عرف الدار ، وأوشك من عرف الدار أن يلجها !!

يا عَفُوُّ ! أسألك من فضلك

سمع التلميذ شيخه في أيامه القريبة صار يلهج بدعاء يقول فيه : يا عفو ، أسألك من فضلك !

فعجب التلميذ من هذا الدعاء ومن سبب لهج الشيخ به ، رغم ما يبدو عليه من سرعة الابتهال وقرب الطلب !

فقال : شيخي ، ما السر في هذا الدعاء الذي بدأت أسمعك تلهج به ؟ يا عفو ، أسألك من فضلك !

فقال الشيخ : يا بني ، لقد أكرمني الله تعالى منذ أيام بهذا الدعاء ، وأجراه على لساني دون قصد ، فوجدت له لذة كبيرة ، وفتح لي معاني فيه عديدة :

❋ ففيه اعتراف وإقرار بأن طلبك الفضل لن يكون إلا بعد اعترافك ببالغ التقصير ، فأنت لا تطلب حقا ، وإنما تطلب فضلا لا تستحقه ، بل تطلب فضلا ممن تستحق منه العقوبة ! ولذلك اخترت نداءه باسم (العفو) .

❋ وفيه اعتراف بأنك بعفوه توفقت لدعائه ، ولولا بوادر عفوه ما وفقك للدعاء أصلا .

❋ ووفيه إجمال للفضل المطلوب ، فإن فضلا ما من عظيم الفضل يغنيني .

❋ وفيه أن الفضل المجمل المطلوب من العفو ذي الإفضال لن يكون فضلا في الظاهر يوقعك فيما يضرك في الباطن ، فلو طلبت طلبا دنيويا خاصا ، ربما كان فيه مضرتك من حيث لا تعلم . فدع ذا الفضل يختار لك من فضله ما ينفعك ، ولن يكون إلا إفضالا جليلا يليق بجوده وسعة ملكه عز وجل .

فقال التلميذ : فهل أدعو به يا شيخي ؟

قال الشيخ : إن وجدت من لذته ومعناه ما يجعلك تلهج به ، فابتهل به إلى مولاك . وإن لم تجد له ما يجعله أولى من غيره : فهو دعاء صالح من بين توجهات الخلق إلى مولاهم عز وجل ، لا مزية له عليها ، فلا هو بمأثور ، ولا مخصوص بتجربة .

طلب الهداية في الفاتحة وتكراره

(٢)

قال التلميذ : شيخي ، لقد وعيتُ من إرشادك لي وتعليمي ونصحي كيف أدفع عن نفسي وسواس نقص الخشوع في تكرار قراءة الفاتحة .

فقد سألتك مرة : أنه ينتابني وسواس يقول لي : ما أكثر ما كررت دعاء الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، فإما أنه قد استجيب لك ، فلمَ تكرر الدعاء ؟! وإما أنك مطرود محروم ، فلا ينفعك الدعاء مهما دعوت !!

أذكر يا شيخي أنك شفيتني بجواب ، مضمونه : أن حاجتك للهداية لا تنتهي ، ولذلك لا تزال محتاجا إلى تكرار الدعاء !!

لكني لا يا شيخي لا زلت أحتاج دواء أَشفى وحجابا أَحمى من ذلك الوسواس ؟!

فقال الشيخ : لو وعيت ما قلته لك حق الوعي ما بقي للوسواس إليك سبيل !

تطيل السؤال ، ولا تطيل فهم الجواب !!!

فقال التلميذ : شيخي ، ما أنا إلا التائه المسترشد ، فلا أعتذر بأكثر من الاعتراف بالخطأ والتقصير ، وبالصدق في طلب إصلاح حالي !

فقال الشيخ : يا بني ، لئن منّ الله عليك بالهداية ، وأكرمك باستجابة دعائك وتكراره ، فهداك صراطه المستقيم ، فهل ستكف رغبتك في مزيد من الهداية ؟!

يا بني ، فرق ما بين أول درجات الهداية وأعلاها أعظم من الفرق بين السماء والأرض ، فكيف ترضى لنفسك بمنزلة من يرى هداية غيره كالنجم الغابر في السماء ، ولا يطمع في بلوغها .

أنسيت يا بني أنك تقول في دعائك في الفاتحة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، وأن هؤلاء هم ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ، فأنت تطلب الله صراط هؤلاء ، أنت تدعو أن تقترب من الصّديق والفاروق!! وهل تشك أن بينك وبين ذلك مسافات تغيب فيها المسافات !!

يا بني ، أرأيت كيف زاوج دعاء الفاتحة بين طلب أعلى درجات الهداية وانعدامها ، فقال في الطلب ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، وقال في التجنب والحذر ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، لتذكر الفرق الكبير بين الحالين ، فتكون للهداية أشد رغبة ، ومن انعدامها أشد نفورا !!

ثم بيّن الله تعالى سببي عدم الهداية :

- الاستكبار ، بمعرفة الحق والإصرار على الباطل (المغضوب عليهم) .

- الجهل المعمي عن الحق ، وهؤلاء هم أهل الضلال .

يا بني : كلما عَظُم المطلوب ، وعَظم المهروب ، استرخصت الأعمار في المرغوب ، وما صار العاقل يحسب كم طلب ، ومتى يكف عن الرغبة ؟!!

يا بني ، كنت قد قلت لك أيضا : لو لم يكن في تكرار الدعاء إلا تكرار المناجاة والخطاب ، لكفاه لذة وشرفا !!

فهل يسأم العبد من أن يناجي مولاه ؟! هل يمل من خطاب ملك الملوك وهو ينصت إليه؟!

يا بني : والله لو تأملت قليلا ، لوجدت أن تكرار دعائك ومناجاتك بطلب قطرة ماء أو تمرة أو عنبة أو أي أمر تافه سوى ذلك : منزلةٌ عالية ومقام رفيع وشرف كبير ونعمة عظمى لا يغفل عنها إلا غافل ، فكيف بتكرار طلب مراقي القرب إليه عز وجل ؟! وبإلحاف سؤال الدنو من بساط الرضوان ؟!!

يا بني : ما ملّ تكرار هذا السؤال إلا جاهل بالمسؤول ، وبالسؤال ، وجهله بالمسؤول أفدح وأعظم ، على عظم السؤال !! فإن من أتيح له مخاطبة الملك كل حين ، ثم هو يمل هذا الخطاب ، لهو المغبون حقا !!

يا بني ، لذة تكرار السؤال ، وتحقق انفتاح الباب لك كلما سألت ، يكفيك عن التفكير في السؤال نفسه : هل أُجيب ؟

يا بني ، انشغل بطرق الباب ، ولا تنشغل بفتحه ، ما دمت على باب الكريم .

يا بني ، انشغل بطرق الباب ، ولا تنشغل بما فُتح لك منه ، ما دمتَ على باب من لا حد لعطاياه ولا منتهى لخزائنه !!

مفاتيح الأذكار

قال التلميذ : شيخي ! أعطني في معاني التسبيح والحمد والتكبير والذكر معاني أصحح بها ذكري ؟

فقال الشيخ : يا بني ، سأعطيك مفتاحا لذلك :

إذا زدت بعد كل تسبيحة شعورا بتقصيرك في تعظيم الله ، فأنت قد سبحت حقا . فالتسبيح : استغفار على نقص مراقبة الباري عز وجل في قلب المسبِّح ، هو تذكير له بأنه ما عصى إلا بنقص في التعظيم ، وما غفل إلا بسبب أنه ما استحضر جلالة المغفول عنه سبحانه .

فراجع نفسك بعد كل تسبيحة : هل ازددت شعورا بخطورة نقص التنزيه لديك ؟ هل كانت كل تسبيحة سباحةً في بحر الحياء من ربك عز وجل : أنك ما عظمته حق تعظيمه ، ولا راقبته كما ينبغي له ؟

يا بني : أما الحمد ، فانظر إلى قلبك ، هل يزداد حبًّا لله تعالى عقب كل حمد ؛ لأنه يستحضر بعد كل حمد عظيم نعم الله عليك وسابغ إفضاله لك ؟! هل كنت عقب كل حمد قد تجاوزت القناعة بالأرزاق والرضا بالأقسام ، إلى الفرح بما قسم الله لك ؟ هل كنت كلما قلت : «الحمد لله» سابقك قلبك بالاعتراف بالامتنان والعجز عن أداء حق الإنعام ؟

واحذر يا بني من شكر التاجر ، يشكر الله تعالى لكي يزيده من الإنعام ، محتجا بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ !

فقال التلميذ : شيخي ! وماذا يعني وعد الله الشاكرين بالزيادة ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، ما شكر أصلا من كان شُكره طلبا للزيادة ، بل هذا طمع ونكران للجميل ، وكأن هذا الشاكر بلسانه ناكرٌ بقلبه ، يقول : لم تكفني عطاياك ، ولا حصلت منك على كل ما أستحق !!

وإنما جاءت الآية مخبرة بوعد لمن شكر حقا ، لمن شكر حبًّا لله تعالى وتعظيمًا لأفضاله وعجزا عن أداء واجب الحمد ، هذا هو الموعود بالزيادة على الشكر .

فمن شكر الله حقا ، واستحضر ثواب الشكر الأخروي والدنيوي ، فلن يقدح ذلك في حمده وإخلاصه ، وإنما يقدح فيه إذا انطلق لسانه بالشكر من أجل الزيادة من نعم الدنيا .

وأما التكبير يا بني : فأنت بكل تكبيره تصغر كل ما عظمت من دون الله ، حتى يتلاشى كل موجود إلا من أوجد الوجود .

يا بني : التكبير هو لحظة الحقيقة ، هو لحظة يجب أن تدرك فيها أن حياتك ووجودك كله ليس سوى منام ، والدنيا كلها هي شخوص ذلك المنام ، فعندما تقول : «الله أكبر» : تستيقظ ، فتتبدد شخوص ذلك المنام ، وتزول كل تلك الأوهام ، ويختفي كل هذا الغرور ، ليبقى الحق الواحد ، وهو الذي لا يقوم شيءٌ بغيره ، فهو قيوم كل شيء !

يا بني : السموات كبيرة ، لكنها بالله كبرت ، وبه تزول إن شاء .

يا بني : الملوك والسلاطين كبار ، لكنهم أحقر من هباءة في مهب ريح أقدار الله تعالى .

يا بني : أعداؤك كبار ، لكن إذا قلت «الله أكبر» صاروا أحقر من الجعلان ، لا يحتاجون أن تأوي منهم إلى ركن شديد ، ما دام ركنك هو «الله أكبر» .

يا بني : الأذكار هي تذكيرك بكبرى الحقائق التي تغفل عنها في تقلبات الحياة ومضارب العيش ، هي تصحيح للرؤية ، وتصويب للفكر ، وإعادة للأمور إلى حقيقتها . هي غسول

الأفئدة ، وضياء البصائر ، وكواشف الحُجب ، فكيف لا تكون بعد ذلك طمأنينة القلوب ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ؟!

ما غفل مؤمن إلا بيأس !

قالها الشيخ ، فتحير التلميذ ! وباتت معه حيرته ، إلى أن استقبل شيخه في اليوم التالي .

فقال التلميذ : شيخي ، احترت في قولك البارحة : ما غفل مؤمن إلا بيأس ، كيف والغفلة قد تكون بسبب وسواس شيطان أو نفس أمارة ، قد تكون بسبب غلو في حب الدنيا وتقديمها على الآخرة ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، هل يشك المؤمن في أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية ؟! هل يشك المؤمن في أن كيد الشيطان كان ضعيفا ؟! هل يشك المؤمن في أن نزغات النفس والشيطان لا سلطان لها عليه ؟!

فقال : التلميذ : لا يشك في ذلك .

فقال الشيخ : فلولا يأس ما في قلب المؤمن ، ما غفل عن الله لحظة ، ما سها في صلاته عن مولاه طرفة !

يا بني ، أويجوز عقلا أن يسهو المؤمن عن ربه ، وهو الذي وعده بالاستجابة لكل دعوة خير له من خيري الدنيا والآخرة ؟!

يا بني ، أويجوز أن يسهو العبد عن مناجاة سيده ومولاه ، لو علم أنه قد أكرمه بسماع مناجاته مهما طالت ؟!

يا بني ، أويجوز أن يغفل المؤمن في صلاته ، وقد علم أنه ليس بينه وبين الوقوف قبالة وجه ربه إلا أن يُقبل على ربه بقلبه ؟!

يا بني ، كيف يغفل من آمن أن يدي الله سحاء العطاء (تصبه صبا) لحظات الليل والنهار ، وهو قادر على سؤال من لا يرد سائل ؟!

فلولا يأس ينتاب قلب المؤمن بين الفينة والفينة ما غفل مؤمن قط !

يا بني ، ما عُصي الله تعالى بمعصية شر من اليأس من روح الله ، لكن اليأس درجات :

- يأس كفر ، كيأس إبليس .

- ويأس معصية ، كيأس العصاة الذي جعلهم بغفلتهم يعصون الباري عز وجل .

- ويأس ضعف بشري ، كيأس الصالحين الداعي إلى غفلتهم عن تمام النعلق بالله تعالى .

فلولا اليأس ما غفل مؤمن قط !

فقال التلميذ : إي والله يا شيخي ، فادع الله لي بعدم الغفلة !

فقال الشيخ : هذه غفلة ! فربك منك قريب !! يا بني : ليس بينك وبين الاستجابة إلا استشعارك هذا القرب ، وأنت مؤمن به ، لكن حضره في قلبك تقف على بساطه !

ما علّة من إذا دعا الله تعالى في أمر الدنيا حضر قلبه

سأل التلميذ شيخه ، قائلا : شيخي ، ما علّة من إذا دعا الله تعالى في أمر الدنيا حضر قلبه، وإذا دعاه في أمر آخرته لها عن الدعاء ؟ يقرأ الفاتحة ، وفيها طلب الهداية ، فيغفل عن عظم المطلوب ، ولو جاء في سجوده إلى طلب الرزق أو الولد : خشع وألحّ ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، للناس في ذلك أحوال ، منها :

- أن بعضهم يستحضر الثوابَ العاجل ، ويغلب عليه حبُّ الدنيا ، ولذلك يظهر ذلك على دعائه وحضور قلبه فيه . فرب قائل ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ، وهو لا يستحضر الخشوعَ والعبودية إلا في المطلوب الأول ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، فيكاد يساوي في سوء الحال من قد ذمه الله تعالى بقوله ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ، رغم اختلاف المقالين في الظاهر وتَباينِ الدعوتين في الألفاظ.

يا بني ، إياك أن تتعامل مع ربك تعامل التاجر : لا يُخرج السلعة إلا بمقابل يراه حقا واجبا له ، وأسوأ من ذلك : أن تعبد الله تعالى وأنت لا تعبده إلا بربحك من الدنيا ! اعبده لرضاه ، اعبده لأنك عبدُه ، اعبده لأنك تحبه ، فسوف يرضيك بفضل مِننه وعطاياه الظاهرة والباطنة .

- وبعضهم كالذي تُؤْيسُه ذنوبُه من طلب الآخرة ، ولكنها لا تؤيسه من طلب الدنيا ، فإذا جاء إلى طلب الهداية : كأنه يقول لنفسه : كم طلبتها ، وما هُديت . أما في أمر الدنيا فلا يقول ذلك ! وهذا قد سول له الشيطان ذلك ، وإلا لو كان قد يئس حقا من

نظر الله إليه ، لكان قد ترك الدعائين ولضَعُفَ حضور قلبه فيهما ! لكن قد رضي منه الشيطان بالأول ؛ لأنه يريد منه التدرج من الأول إلى الثاني ، ليُحكم عليه الفخّ بشر الذنوب، وهو اليأس من روح الله ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

يا بُني : قُل لنفسك إذا نازعتك حضورَ قلبك في طلب الهدايةِ والتوبة وشأنِ الآخرة : يا نفسُ ! لولا اتصالُ نظر الله تعالى إليّ بالرحمة لما هيّأ لي أن أدعوه بآخرة ولا دنيا ، يا نفسُ! لولا أن الرَّحمة تغلب الرَّجْمة وأن حِلْمَه تعالى يدفع نِقَمَه لما رضيني أن أقف بين يديه في صلاة ، ولا أن أشرُفَ بسجدة الجباه ، ولا أن أدعوه لا أدعو إلاه .

يا بُني : ما دام قد فتح عليك باب الدعاء في شسع نعلك ، ورُبع فِلسك ، ولقمة خبزك، فقد فتح لك باب كل دعاء بما شئت مما أباحه لك من خزائن السموات والأرض والدنيا والآخرة !

يا بُني : لا تُؤيِسُك غفلتُك في دعاءٍ لك عن حضور قلبك في غيره ، ولو كان حضور قلبك في الدنيا ! فتكون بذلك قد صدّقت فيك ظن إبليس في الإبلاس من رحمة الله . ولكن اجعل حضور قلبك في شأن دنياك سببا لحضور قلبك في شأن آخرتك .

يا بني : ربك يعلم ضعفك ، فاسأله بضعفك ، فهو يحب فيك : الاعترافَ بحقيقتك ، والتواضعَ ، وعدم نسيان افتقار عجزك ؛ فتوجه إليه بنحو نداء قلبك : يا رب أعلم أني مخلوق من عجل ، أعلم أني عجول : ولذلك ربما قصر نظري على عاجل ثواب الدنيا ، لكنني والله يا رب : ما زلت أحبك ! والله ما زلت أريد رضاك ! نعم .. قد تَخَلَّفَ عملي عن دعواي ، لكنني أتوجه إليك بما فَسَحْتَ لي من رحمتك ، أن تُلحقني

بدعاواي العريضة في حبك وإيماني بك وثقتي بجودك ، وأن تفتح لي في الاستجابة بابًا يُدخلُني مُدخلَ صدقٍ ويخرجُني مُخرج صدقٍ ويجعلُ لي من لدنك سلطانًا نصيرا .

ثم نظر الشيخ إلى التلميذ ، فوجده قد غسل وجهه بدموعه ، فرجا أن يكون قد غسل قلبه برجوعه ، فصمتا في سكون اللجوء إلى باب الله !

كيف يكون الدعاء عبادة وهو طلب منفعة

قال التلميذ : شيخي ، كيف يكون الدعاء عبادة وهو طلب منفعة ؟! فطالب المنفعة يتذلل للمنفعة ، لا للنافع !! والعبادة تذلل للنافع ، لا للمنفعة !!

فقال الشيخ : يا بني ، الدعاء طلب منفعة من النافع بذاته ، فالداعي قد تعبّد لله تعالى باعتقاده فيه عز وجل أنه هو وحده الرازق المالك المدبر ، ثم طلب بعدئذ من ربه النفع . فالداعي لا يتذلل للمنفعة ، بل يتذلل للنافع الذي بالتذلل له تتحقق المنافع .

يا بني ، الدعاء هو تَجلي العبودية : فهو اعترافٌ بالعجز الكامل أمام كمال الحول والقوة ، وهو لجوء الفقير للغني الجواد ، وثقة المستجير بالمجير ، وتَشبث المستغيث بالمغيث ، وتَحبُّبُ الصغير للكبير ، وتودد العبد للسيد ؛ فكيف لا يكون الدعاء عبادة ، وهو متضمن كل أصولها وفروعها وثمارها .

يا بني ، كم ذكّر دعاء ناسيا بعبوديته وافتقاره لربه ، حتى ربما كان طلب المنفعة فيه أقل فوائده وعوائده ، إذ ذكّر ناسيا ! وكم أيقظ دعاؤك شعورك بإيمانك ، فاستيقظت على قلب مؤمن ، كانت الذنوب واليأس قد شككاك في وجوده ، فاستيقظت على إيمان راسخ وقلب نابض بالثبات عليه !

يا بني ، ادعُ ، وادعُ ، ثم ادعُ ؛ فأنت في عبادة مادمت داعيا . وحين تترك الدعاء ، فاعلم أنك في معصية أشد من كل عصيان !

علاج تناقص الخشوع في أواسط رمضان عن أوله

قال التلميذ : شيخي ، ما علة تناقص خشوعي وحضور قلبي بامتداد أيام رمضان ، فلا يكون أوله كأواسطه ؟!

فقال الشيخ :

يا بني ، فرق بين مَن يريد مِن القُرب حاجة ، ومن يريد من القرب أن يزداد قربا . ألا ترى طالب الحاجة ، إذا قرع الباب ، ونال حاجته ، مضى . وأما طالب التقرب ، فإنه لا يمضي أبدا ، فإذا فتحت الباب ، أراد الدخول ، ولا يزال يطلب القرب أبدا .

فمن الناس من يتقرب لحاجة دنيوية أو دينية ، فإما تحصل له ، وإما يتوهم أنه لن يخلص في دعائه بها أكثر مما أخلص وألح ، فتتناقص عزيمته بسبب تأمل حصول الطلب .

ومن الناس من كلما اقترب ، طلب مزيد تقرب :

- لأنه يعلم أن الاقتراب يحقق له كل مطلوب بغير طلب ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

- ولأن القرب هو نفسه أعظم مطلوب .

فقال التلميذ : شيخي ، أرجو أني وعيت عنك ما تقول . فأخبرني عن أول تصحيح الحمد ، والتسبيح ، والتكبير ؟

فقال الشيخ :

أما الحمد : فآفته من اقتصر حمده على طلب المزيد ، لفهمه الغالط لوعده تعالى بالمزيد لمن شكر .

وثاني آفاته : من قصر حمده على قصد حفظ النعم .

وأول درجات إصلاحه : أن يكون منطلق لسانه بالحمد هو شعوره بالامتنان للمنعم عز وجل .

أرأيت من شكرك لتعطيه ، ومن شكرك لتبقيه ، ومن شكرك حبا لك وفرحا بك لما تؤتيه = أيهم الذي شكرك على الحقيقة ؟

وأما التسبيح : فيجب أن يكون تنزيها لله تعالى في قلبك عما نقص من حقه فيك ! فأول درجات التسبيح هي استغفار عن معصية لم ترتكبها إلا بغفلتك عن عظمته ، استغفار عن تقديم شهوتك على أمره .

فالتسبيح يجب أن يكون أول منطلقه أن تتذكر ما نقص من عظمة ربك في قلبك ، فتنزهه عنها .

أما التكبير : فهو تعظيم لله تعالى في قلبك على كل من عظمته عليه : بتقديم خوفك منه على خوف الله تعالى ، برجاء نواله وتعلقك به أكثر من رجاء ربك عز وجل ، بما أغفلتك هيبة ملك أو ذي سلطان عن جلال ذي الجلال والملكوت سبحانه .

فقال التلميذ : ليتني سألتك منذ زمن بعيد ، فقد كنت على غير هذه الدرجة أخطو ، والله يعفو عني .

قال الشيخ : وعني ، آمين !

كيف تكون صلاتي على النبي ﷺ كدعاء المضطر في شدة اللجوء لله تعالى

قال التلميذ للشيخ : شيخي ! لا أجد في نفسي معنى للتضرع واللَّجَأِ عند صلاتي على النبي ﷺ، مكتفيا بالإخلاص واستحضار معنى ما أطلب ، وهو زيادة البركات والصلوات والتسليمات الأتمات والأكملات على خير البريات (عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات) ؛ لأني أقول في نفسي : سألت الله تعالى محبوبا إليه لأحب الخلق إليه ، فالإجابة حاصلة (بإذن الله تعالى) ، فما الداعي لمزيد التضرع واللجأ ؟!

شيخي ، فهل أنا مخطئ ؟!

فقال الشيخ : يا بني ! أنت على خير ، لكنك مقصّر !!

بل تضرع يا بني ، واجعل لَـجأَك عند الصلاة والسلام عليه كلَـجأ المضطر وكدعاء المظلوم وكجؤار أهل السفينة إذا عصفت بهم الريح وأيقنوا بالهلاك :

لأسباب :

منها : أن عظم حقه (عليه الصلاة والسلام) عليك شيء لا تستطيع مكافأته عليه ، وحق صاحب الحق أن تحرص على أداء شيء من حقه ، فهو دين ، لولا رحمة الله لاستحققت المؤاخذة على التقصير في أدائه . فالأصل أن تكون مأخوذا بعنقك بهذا الحق ، مطلوبا بهذا الدين ، فكيف لا تخشى التقصير ؟! وكيف لا تستحضر تخوف المحاسبة يوم الجزاء على عدم أداء الدين ؟!

فاخشع وتضرع عندما تصلي وتسلم على سيد الخلق أجمعين (صلى الله عليه وسلم) .

ومنها : أن ما ذكرته من أسباب ترك اللجأ وترك دعاء المضطر كان يجب أن يكون هو داعيك إلى ما تركت ! فما دمت تسأل الله تعالى محبوبا للمحبوب إليه (صلى الله عليه وسلم)، فأنت على باب الإجابة تقف ، وليس بينك وبين القرب القريب إلا خطوات ، فكيف تفرط في هذه الفرصة بأن تقترب أكثر ؟! كيف لا تحرص أكثر على أن تغتنم هذا الموقف الجليل بأن

تزداد من الله قربا ، وأن تقف على بساط الحضرة ؟!

جربها مرة يا بني ، لتجد لذتها ، جرب الصلاة والسلام على رسول الله بتوجه المضطر وإصرار المحتاج وإلحاح المظلوم ؛ فإني أرجو إن فعلت ، أن لا تنتقص حظك منها بعد ذلك !!

سرّ تكرار الدعاء مع اليقين من الإجابة

قال التلميذ : شيخي ، إذا دعا المرء ربه موقنا بالإجابة فهل إعادته دعاء ربه بالدعاء نفسه يدل على خلل في يقينه بالإجابة ؟

فقال الشيخ : لن يكون خللا في يقينه مادام يلح في دعائه على المعاني التالية أو أحدها :

١- إلحاحه على طلب استجابة الدعاء بأحد وجوه الاستجابة الثلاثة وهو طلب حصول الأمر المدعو به نفسه ، مع يقينه بحصول وجهَي الإجابة الآخَرين .

ويدخل في ذلك الإلحاح لطلب المزيد والبركة في الأمر المدعو ، فقد يهبك الله تعالى ما دعوته به ، لكن بركات العطاء تتفاوت تفاوتا كبيرا .

٢- وإذا كان إلحاحه ترقيا من يقين إلى يقين أعلى : طلبا لدرجة أعلى في اليقين . مما يجعله يرى يقينه السابق ظنا ، فيكون شكه في الإجابة شكا في تمام إخلاصه هو وفي صدق توجهه وفي تمام مناجاته ، وليس شكا في استجابة من وعد بالإجابة سبحانه وتعالى .

٣- وإذا كان تلذذا بالمناجاة ، واعتبارها هي وحدها مطلبا ومكسبا ، بل هي المطلب الأول ، والاستجابة هي المطلب الثاني . فالدعاء عبادة ، وهو خطابك لله ، فالأجر الأخروي به حاصل قطعا مع الإخلاص .

يا بني لذة المناجاة ثواب عاجل للدعاء ، وهو ثواب لا يُفرط فيه !

أرأيت إلحاح أفضل الخلق (صلى الله عليه وسلم) وأهداهم وأخشاهم لله بأن يهديه الله تعالى في كل صلاة وفي كل مرة يقرأ فيها فاتحة الكتاب ، ليقول في كل ركعة من صلاة وفي كل دعاء له بقراءة الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، فيكرر (عليه الصلاة والسلام) هذا الدعاء

هذا التكرار : وهو أهدى الخلق ، وهو الصراط المستقيم ، وهو إمام من أنعم الله عليهم (عليه الصلاة والسلام) !

كل ذلك تلذذا بالمناجاة وطلبا لبركة الدعاء وتعبدا لله تعالى !!

فألح يا بني في الدعاء وأنت على يقين بالإجابة ، ولا تنس أن الله تعالى أعلم بما ينفعك وأن حظك الأوفر من دعوتك هو حظك من تعبدك ويقينك وتقربك لله تعالى بها .

كيف يشعر العبيد بحلاوةِ جمال الله ؟!!

قال التلميذ : شيخي هل ذقت حلاوة جمال الله ؟

فانتفض الشيخ ، وقال : اسكت ، لا تعرف أن تسأل !!

فخجل التلميذ ، وقال : عذرا شيخي ، أوليس الله جميلا يحب الجمال ؟!

فقال الشيخ : بلى ، بل الله أجمل موجود ، وكل جمال الكون من فيض جماله ، ولولا جماله تعالى ما رأيت جمالا قط . ولو اجتمع جمالُ الكون كله في مخلوق واحد ، فحاز هذا المخلوقُ الجمالَ المخلوقَ كله ، لما جاز إلا أن يتلاشى لجمال خالقه عز وجل !

فقال التلميذ : فما وجه الخطأ في سؤالي ، يا شيخي ؟!

فحلُم الشيخُ وقال : يا بُني ، جمال الخالق جمال مطلق ، هو جمال الأول والآخر والظاهر والباطن عز وجل ، فلا يمكن أن تدرك القلوب من حلاوة جماله (عز وتقدس) إلا ما تحتمله قلوب المخلوقين الضعيفة العاجزة .

فكان عليك أن تقول : هل مس القلبَ شيءٌ من حلاة جمال الخالق تعالى ؟

فقال التلميذ : والله يا شيخي ، ما أردت إلا هذا ، لكن خانني التعبير .

فقال الشيخ : يا بني ، ظني أن هذا سر مكنون ، وغيب مضنون ، لا يكون ولن يكون ؛ إلا في الآخرة ، عندما ينسى أهل الجنة عظيم نعيمها بزيادة نعيمهم برؤية الباري عز وجل ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

لكن قد يفتح الله لبعض عباده من ذلك فتحا في الدنيا !

فقال التلميذ : فصف لي ذلك الفتح يا شيخي ؟

فقال الشيخ : يا بني ، لا تسل عن تلك اللذة ، ولا تطمع بأن يستطيع أحد وصف ذلك النعيم : إن فُتح له في الدنيا من حلاوة جمال الله فتحٌ !

يا بني ، هل تفهم ومضة الجمال المجتمعة في اللحظة الأولى لرؤية من كان أعمى طوال عشرات السنين ؟! هل تعرف الانشراح الذي يشعره صدر من انكتمت أنفاسه حتى كاد يموت ، ثم فجأه عاد إليه النفس كأقوى ما يكون ؟! هل تدرك ومضة البرق كيف يمكن أن تضيء قلبك لو اجتمعت كلها فيه ؟! هل يمكن أن تشعر بشعور تائه في الصحراء قتله الظمأ ، فإذا به يُفاجأ أمام وجهه وتحت قدمه بأجمل دوحة غناء وأعذب ماء ؟! هل تدرك كم اجتمع في طرفة العين تلك في أول تلك النظرة من الفرح والسعادة واللذة والجمال ؟!!

تلك اللحظات الأولى التي تعجز القلوب عن وعيها ، حتى ربما توقف القلب عن خفقانه من شدة الجمال ولذته فيها ، فضلا عن عجز اللغات (كل اللغات والكلمات) = هي في ظني الروزنة التي تُفتح في الدنيا للشعور بشيء من حلاوة الجمال الإلهي !!

ستشعر يا بُني أن نورا انشق من قلبك فانبعث في السماء !

ستشعر يا بني أن سُخام قلبك قد غُسل بماء بارد من الجنة !

ستشعر يا بُني أن شيئا مر بك من اللذة لا أمكنك منه إلا أن تتقطع شوقا إليه !

يا بني ، حُق للعبد أن يبكي شوقا لله !

يا بُني ، حُق للعبد أن يهيم حبا في الله !

يا بُني ، حُق للعبد أن يستلذ كل جهد وجهاد في سبيل الوصول إلى نعيم جمال الله تعالى !!

يا بُني ، حُق للعبد أن لا يأسره أي جمال لو تعلق بجمال خالق الجمال !

فقال التلميذ : شيخي ، صف لي شعور الحب لله تعالى ؟

فقال الشيخ : الشعور الحقيقي بحب الله تعالى ، ولو في أول درجاته = ألذ شعور إنساني على الإطلاق ؛ لكنه شعور يتفلت ، ولا يدوم . وهو يغار ، حتى إنه ليغار من الالتفات للتلذذ به عن الالتفات له ، فمن حين أن تشعر بلذتك به : يتبدد ويغيب ، وكأنه ما كان، فتبقى حسرةُ تَبَدُّدِه شوقًا شديدا !

وهنا يخطئ بعض المكرَمين (بفتح الراء) ، فاحذر إذا اشتقت من أن تشتاق للذة الحب، ولا للحب نفسه ، وإنما تَشوَّقْ للمحبوب (عز وجل) ، بتذكر جماله وكماله وبتوالي عطايا حبه لك .

فعند حصول الشوق الحقيقي لله تعالى تفيض لذة الحب عليك بنعيمها الذي لا مثل له.

فتشعر بلذتها ، فتعود للتفلت والتبدد ... وهكذا دأب المشتاقين ، إلى زمن اللقاء !

فأراد التلميذ أن يسأل سؤالا آخر ، فقاطعه الشيخ قائلا : يا بُني ، لا تسل عما لا تحيط به الألسن ولا تعيه القلوب ولا يمكن أن يصفه من ذاقه ، فضلا عمن لم يذقه ، وإنما يتحدث عنه حديث مسكين عن قصص قصور الملوك ! يصف ما لم يره ولا شعر به ولا طرق خياله شيء مثله !!

تكرر الغفلات بعد الإقبال في الصلاة

قال التلميذ : شيخي ، أكون خاشعا مقبلا في صلاتي ، ثم أغفل ، فإن تنبهتُ قالت لي نفسي : يا تائه ، لولا أن خشوعك مدخول ، لولا أن إخلاصك منكوس ، لولا أنك أقبلت على نفسك بالعُجب بالعمل ، لما كانت عاقبة الخشوع إلا مزيد خشوع ، ولما تشعبت بك الهموم في كل واد لاهيا ساهيا عن ربك !

فلا تزال تتكرر غفلتي ، ويتكرر تشكيكي في الإخلاص والخشوع حتى أخشى أن أستلذ استمراء الغفلة يأسا !

فقال الشيخ : يا بُني ، اعلم أنه ليس من شرط القبول أن لا تغفل في صلاتك ، من قال هذا ؟! إلا بعض جهلة الوعاظ !! فلئن كان الوقوع في المعصية لا ينفي قبول عمل صالح سبقها ، فكيف بغفلة في طاعة ؟!

يا بني ، لئن كان الله يغفر للمستغفر والتائب ، ولو أذنب في اليوم مائة مرة ، يستغفر الله أو يتوب إليه مائة مرة عقب كل مرة يذنب فيه . فكيف لا يُقبل عليك كلما أقبلت ، حتى لو غفلت في صلاتك مائة مرة ، ما دمت تقبل عليه بعد كل غفلة .

يا بني ، ثق بعطاء مولاك ، حتى من العمل الصالح ! فرب عبد أهلكه كثرة عمله الصالح: بالعُجب (وهو لا يشعر) ، أو بالتألي على الله !!

ورب عبد قربته معصيته : بانكسار القلب وشدة الذل لمولاه عز وجل ، وبحب الصالحين والإحسان إليهم .

يا بُني ، ما دمت تقف بباب مولاك في صلاتك ، فلا تخش إلا من أن لا تقف مرة أخرى ! فالواقف بباب الكريم ، لن يرجع بغير عطاء ، ولو كان ببعض طرقه الباب غافلا وساهيا أنه بباب الجود !

يا بني ، اغفُل وأقبل ، ثم اغفل وأقبل ، ثم اغفل ولا تتردد في الإقبال كل مرة تغفل فيها ، فلك بكل غفلة تحزن عليها عند إقبالك ما قد يفوق أجر إقبالك ؛ لأنه أنزه لك عن العُجب ، وتذكير لك بدوام حاجتك للعون والهداية !

يا بُني ، كلما تنبهت بعد غفلة ، فكما تحزن على غفلتك ، فافرح بأنك قادر على الإقبال ، ورب إقبال لحظة كفّر غفلة أزمان .

يا بُني : اليأس من كثرة الغفلة هو يأس من كثرة الإقبال ؛ إذ لا إقبال أصلا إلا بعد غفلة ! ولا ييأس من الإقبال إلا مشؤوم !

يا بُني ، عُد الغفلة ظمأك ، والإقبال ارتواءك ، هل تترك طلب الارتواء لتكرر الظمأ ، إذن هذا هو طريق الهالكين !

يا بُني ، ثم ما أدراك أنك تزداد قربا وأنت لا تشعر ؟!

فقال التلميذ : كيف ذاك يا شيخ ، وأنا أغفل ؟!

فقال الشيخ : يا بُني ، لا يزداد المتقربون بالتقرب إلا مزيد شوق لمزيد قرب ؛ لأنهم يتقربون لمن لا تبلغ نهاية قربه نهاية ، ولا حد لمنازل أوليائه وأصفيائه مهما علت ، وكلما وقفت أقدامهم على بساط ، بدت لهم بُسُط اقتراب لا تنتهي ، فيزداد افتقارهم لمزيد من التقرب !

ووالله ما ازداد شعور المتقين المقربين إلا فقرا لمزيد من التقرب !

نحن يا بُني كمن تشقق حلقه من الظمأ ، إذا وجد الماء ، لا يزداد بالشرب إلا مزيد ظمأ ، حتى إن أهل الخبرة والمعرفة يمنعونه من المبالغة في الشرب ؛ لكي لا يهلك بكثرة الشرب ، وهو لا يرتوي ، حتى يشفى من شدة الظمأ بالتدريج .

فنحن يا بُني ما نزال في شدة الظمأ لربنا ، حتى نلقاه ، فلا تزيدنا كؤوسُ القربات إلا ظمأ إليه . ومن رحمته بنا تعالى أن جعل الغفلات ، واللمم من الهفوات ، فتراتِ انقطاعٍ عن كؤوس الارتواء لكي لا نهلك ! ولذلك كان كل ابن آدم خطّاء !!

فقال التلميذ : أحسنت بي الظن يا شيخ ! أين أنا من قوم لا يزدادون بالتقرب إلا اجتهادا فيه ؟!

فقال الشيخ : اعمل يا بُني ، ولا تفتر عن إقبال بعد غفلة ، فأنت من الله قريب ما دمت كذلك !

الطمأنينة بالقرب لا يكون في الدنيا ، ولن يكون إلا في الجنة

قال التلميذ : شيخي ، أتقرب ، فلا أشعر بالقرب !

فقال الشيخ : ولن تشعر !!

فأطرق التلميذ مفجوعا باكيا ، يظن أنه مطرود !

ثم قال : شيخي ، دلني على الطريق ! فما لَزِمْتُكَ إلا لذاك !

فقال الشيخ : داوم على ما أنت عليه من التقرُّبِ لله تعالى !!

فعجب التلميذ ، وقال : مع عدم الشعور بالقرب ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، فرق بين الإيمان الجازم بأنك تقترب وأن تشعر بالقرب !

يا بني ، كن على يقين أنك ما تقربت إليه تعالى بشبر إلا وتقرب إليك سبحانه ذراعا، وما تقربت إليه ذراعا إلا وتقرب إليك باعا، وما أتيته تمشي إلا أتاك – تعالى وتقدس – هرولة!!

يا بني ، الله تعالى يتقرب إليك أضعاف تقربك إليه ، فهو يحبك ، وهو يجازيك بقليل تقربك بعظيم تقربه منك .

يا بني ، لكنك لن تشعر بالقرب ؛ فكما أن الله تعالى لا حد لعطائه ، فلا حد للقرب منه ، ومهما تقربت إليه وتقرب منك : فأنت بعيد كل البعد عن نهاية لا نهاية لها ، ولذلك لن تشعر بالقرب . أرأيت من صعد إلى أعلى قمة جبل ، بل من صعدت به المراكب الفضائية إلى القمر أو إلى كوكب آخر ، أين هو من قبة السماء ونهاية الفضاء ؟!! فهو إن نظر إلى تحت ، وشعر بالعلو : سقط عن علو لم يبلغ منه شيئا ، مهما ارتفع . وأما إذا استمر في النظر إلى العلو ، استمر في الصعود . وهكذا حال المؤمن ، لن يشعر بالقرب ، مهما اقترب ، فإن شعر به سقط !

يا بني ، أنت في دار ابتلاء ، وغدا دار جزاء ، ومن طلب الأجر قبل حلول وقته فقد ظلم!

وأي أجر أعظم من تقريب المحبة ، والتلذذ بالمناجاة ، وحلول الرضوان عليك ! فلا تطلبه الآن ، وادّخره ليوم اللقاء !

ما ذرفت عينُك دمعةً على ذنب ؛ إلا لأنَّ عينَ الله تعالى نَظَرَتْكَ بالـحُبّ !

بينما الشيخ في حلقة درسه ، إذ دخل شاب المسجد ، ليس من أهل الحلقة . فصلى ركعتين، وهو يبكي . فلما انصرف من صلاته ، سمع الشابُّ الشيخَ يتكلم بكلام الشيوخ ، وحوله التلامذة ينصتون ويقيدون .

فاقترب الشاب وجلس في الحلقة ، فسمع الشيخ يقول : ما ذرفت عينك دمعة على ذنب ؛ إلا لأن عين الله تعالى نظرتك بالحب !

فانتفض الشاب ، وصاح : يا شيخ ! انظر ما تقول ؟! فوالله إن عتاة العصاة والغارقين في الموبقات ربما بكوا ، فهل هؤلاء أهل بأن يحبهم الله تعالى ؟! ما الدليل على ما تقول ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، لا تسل عن حب الله لخلقه ، فلولا حبه لهم ما خلقهم !

فقال الشاب : حتى الكفار ؟! حتى إبليس ؟!

فصمّت التلامذة الشاب ، وانتهروه أن اعترض على الشيخ .

لكن الشيخ قال بيده : أن اهدؤوا !

ثم قال الشيخ للشاب : لقد أحب الله خلقهم ، وأحب لهم النجاة ؛ لكنهم اختاروا العصيان ، فغضب عليهم ، لا منهم ؛ لأنهم خسروا أنفسهم التي أحبها باريها ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، فجعل الله تعالى أنفسهم مخسورة ؛ لأنها لا تستحق الخسارة لنفاستها عند خالقها .

ثم قال الشيخ للشاب : يا بني ، أرأيت بكاء العاصي : أكان بتقدير من الله ؟ فقال الشاب: لا شك ، فلا يقع شيء إلا بقدر . فقال الشيخ : فلماذا قدر الله تعالى للعصاة أن يبكوا ؟!

فصمت الشاب متفكر !

فقال الشيخ : لولا أن فتح الله على العاصي من فيوض حبه ما فاضت عبرات ذنبه ، لولا أن نظر الله إلى الغافلين بعين رحمته ، لما نبعت من عيونهم مياه الندم .

فخن الشاب في البكاء ، وقال : شيخنا ! لكن الذنب يتكرر ، حتى خشيت أن دمعتي خداع نفسي لنفسي ، حتى خشيت أني أكذب على الله بها ، حتى ظننت أني سأُطرد من الرحمة بهذه الدمعة الكاذبة !

فقال الشيخ : يا بني ، خشيتك برهان صدقك ، إنما هذا الشيطان يغلق عليك باب الرجاء، ويريدك أن تقف معه بعد باب اليأس الذي جعله آيسا من رحمة الله .

يا بني ، ما دام تباكيك ليس للناس ، لا رياء ولا سمعة ، فهو استعطاف وتذلل ، سيقبله الله ، وسيفتح لك بابا من رحمته لتلج في بحبوحة الرحمة !

يا بني ، من استبكى فقد عرف أن البكاء عند الباب مفاتيح العطاء ، والكريم يعطي على الوقوف على الباب ، فكيف بمن وقف وفتح بالتباكي ؟!

وقد كان عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) إذا رأى من رقيقه أمرا يعجبه أعتقه، فكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فكان بعض غلمانه ربما شمر ولزم المسجد ، فإذا رآه على تلك الحال الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: والله - يا أبا عبد الرحمن - ما هم إلا يخدعونك، فكان يقول: من خدعنا بالله ، انخدعنا له !

يا بني ، لن يكون العبد أكرم من الله !

يا بني ، قل لشيطانك : من تظاهر بالخشية لله ، وهو موقن بأن الله يعلم باطنه مطلع على سرائر قلبه ، فهو لا يخادع الله ، بل يخادعك أيها الرجيم ، ويخادع نفسه الأمارة بالسوء ، فهو يصدق الله ، ويمكر بنفسه وبالشيطان .

يا بني ، رب متباك صارا أواها بكاءً !

رب متظاهر بالخشية من الله – لله ، لا للناس - فخُلعت عليه خلع الخشية ، فصار يرفل في ثوب من الخشوع ، لا يفارق قلبه .

فهدأ الشاب ، واستنار وجهه بدمعة صافية !

الطُّرُقُ إلى الله تعالى أكثر من أن تنقص عن عدد السالكين

الطُّرُقُ إلى الله تعالى أكثر من أن تنقص عن عدد السالكين !!

قالها الشيخُ ، فقال التلميذ : ولكن الشرع حدد سبيل الله وصراطه المستقيم ، وأنه صراط واحد ، وجعل ما سواه من السُّبُل سُبُلَ الغواية والشيطان ؟!

فأطرق الشيخ ساكتا بلا جواب ، وسكت الجميع ، حتى ظنوا أن الشيخ لن يتكلم ليلتئذٍ!

لكن الشيخ بعد إطراق طويل ، رمق التلميذ بنظرة سريعة ، فوجده واجما محمرّ الوجه يكاد وجهه يغيب في صدره من شدة الأسف!!

فقال الشيخ للتلميذ : هذا أول تلك السُّبُل ، يا بُني !!

فسُرّي عمن في المجلس كله : أنّ الشيخ تكلَّمَ ؛ إلا ذلك التلميذ ، فقد ازداد وجومًا وإطراقَ رأسٍ !

فأتمَّ الشيخُ حديثه ، وقال : يا بني ، جاء جوابك على كلامي وكأنه اعتراضٌ عليه ببدهيات الشرع ، مما لا يخفى على أحد ، مما يوجب عليك أن لا تحسن الظن بنفسك على حساب إساءة الظن بشيخك ، فتظن نفسك عرفتَ ما غاب عنه ، وهو من بدهيات المعرفة التي لا تغيب عن أحد !

(وأتم الشيخ قائلا :) فسكتُّ عن جوابك ، لأرى واردك فيه : هل هو وارد رحماني أم وارد شيطاني ، فلما رأيتك منكسرًا حياءً علمتُ أنه واردٌ رحماني ، لكنك استعجلته في قلبك قبل أوان اكتماله ! فجاء على هيئة اعتراضِ المعجَبِ بنفسه ، المسيءِ بالظن إلى شيخه !! ولو أني

حين رمقتُك رأيتك مزهوا باعتراضك ، متهلل الوجه به ، لعلمت أنه وارد شيطاني ، جعلك تظن أنك قد أظهرت علمَك وأنك غلبتَ شيخك!!

فبكى التلميذ ، وجاء يتكلم ويعتذر ، فقال الشيخ : قبلنا عذرك قبل الاعتذار !

يا بني ، لو كانت سُبُل الله تقل عن عدد السالكين لوجب أن تكون بكلامك السابق قد سلكتَ سبيل غواية !!

يا بُني ، صراط الله واحد ، لكنه مسالك بعدد أنفاس الخلائق .

يا بُني ، شرع الله واحد ، لكنه يتسع لإيصال الناس كلهم إلى رضوان الله تعالى .

يا بُني ، أرأيت ذلك الصحابي الذي كان مكثرا من شرب الخمر ، فاتسع له باب حب الله ورسوله ، فولج منه إلى حصنٍ حصين يحميه من الطرد .

يا بني ، أرأيت الفضل بن العباس محرما رديفا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحج، يرمق امرأة وضيئة الوجه معجبًا بحسنها كانت تخاطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، تالله ما خرج من سبيل الله إلا ليدخل في سبيله تعالى بصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجهه عن المرأة ، حين أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة ذَقَنَ الفضل فعدّل وجهه عن النظر إليها ، وكأن شيئا لم يكن .

لئن اتسع سبيلُ الله تعالى ذلك الجيل ، في مثل موقف الفضل بن العباس (رضي الله عنهما) وهو في تلك الحال الفضيلة من الحج ، وفي مثل تلك البقعة الشريفة ، وأجل من ذلك وأعظم: أن كتفه تلتصق بكتف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ووجهه في مرآة وجه سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم)وأخشاهم وأخشعهم ، فما ضاق سبيلُ الله عن الفضل بأن اكتُفي لإعادته إليه بأن صُرف وجهه برفق عن المرأة الوضيئة.

يا بني ، تالله لو أدرك الجنيد زماننا أو الشيخ عبد القادر الجيلاني ، لسلكا بالناس مسالك غير التي كانت تصلح الناس في زمانهم ؛ لاختلاف الحال .

ولو أدرك ابن عطاء الله السكندري زماننا لكتب دستورا من الحِكم ، تَسْلُك بأهل زماننا ، كما سلكت الحكم العطائية بأهل زمانه .

يا بني ، كما اتسع سبيل الله للأغنياء والفقراء ، وللملوك والسوقة ، وللأقوياء والضعفاء ، مع تباين ما بينهم التباين التام ، فكذلك تتسع سُبل الله أهل الغفلات كما اتسعت لأهل الذكر!

يا بني ، كم نجا غافل ، وكم هلك عابد ! الأول : بانكساره وذله وعدم يأسه في رحمة الله، والثاني : بعُجبه وتكبره وثقته بعمله .

يا بني ، ما أحوج أهل زماننا لحكم عطائية تناسب زمانهم وواقعهم ، مع افتقارهم إلى حِكَم زمن ابن عطاء الله !

فرفع التلميذ رأسه ، ورأى الشيخ في فمه كلاما ، فقال له : قُل يا بُني ؟

فقال التلميذ : فهمت يا شيخي أن على شيوخ السلوك المعاصرين ترتيب الناس على مراتب بحسب طبقاتهم في أحوال الطاعة والمعصية ، وأن لا يكون تسليك الناس كلهم على مرتبة واحدة ؟

فقال الشيخ : فَقُهتَ فالزمْ !

يا بُني ، لا أضر ممن حَمّلَ هزيل البدن ضعيفَ القُوى ما لا يحمله إلا أشدُ الناس وأقواهم بدنا ؛ إلا من حمّل خَوّار العزيمة الإيمانية ما لا يحمله إلا راسخ العزيمة حازم القوة الإيمانية .

يا بني ، للعصاة مسلكهم إلى الله تعالى وللطائعين مسلكهم ، ومسلك العصاة قد ينجيهم وهم عصاة !

- أترى إتباع السيئةِ الحسنةَ .

- أترى انكسار القلب ودمعة الذل لله تعالى .

- أترى الرضا بآلام المقادير ومصائب الدنيا على أنها جزء من عقوبة عصيانه ، يرى العاصي أنه مستحق لأكثر منها ، فيحمد الله أنه ما عوقب بأكثر منها ، ويحمده مرة أخرى أنه عاجله بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة .

- أترى استغفار القلب واللسان .

- أترى إحسان الظن بأهل الطاعات وحبهم وطلب بركة دعائهم .

ذلك كله هو عمل عصاة ، وهم عصاة ، وهو من أسبابهم في النجاة .

ما أحوج شيوخ السلوك - يا بُني - إلى تجديد علومهم ، وعدم الجمود على مسالك السالفين .

ما أحوج الناس إلى شيخ طبيب ، يحرص على العلاج الإيماني ، فإن عجز عند تفشي الداء: فأن لا يزيد استشراؤه في مريض الطاعة فلا يموت إيمانه ، فإن عجز : فأن يريح المريض حتى يلقى الله تعالى وهو على عقد الإيمان ولو مع العصيان ، فرحمة الله تسعه ، وعفوه أكبر من ملء الأرض خطايا = خيرٌ من أن يلقى الله بعقد الإيمان قد انحلّ ، وحلّ مكانه عقد القنوطِ فالتمردِ والكُفْران !

يا بني ، كان الناس يبكون على فوات النافلة والطاعة المستحبة ، فصرنا نفرح ببكائهم على فعل الكبيرة ! فكيف لا تتباين مسالك العباد إلى الله ، وهم بهذه الطبقات المتباينة ؟!

يا بني ، ليس المقصود تغيير الشريعة ، فالحرام حرام ، وستبقى الكبائر كبائر ، لكن كما جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) لمدمن الخمر سبيلَ حب الله والرسول مسلكا لنجاته ، مع إصراره على كبيرة شرب الخمر ، وهو في ذلك الجيل الذي يجد الطائعون عليه أعوانا ، فكيف يضيق السبيل إلى الله تعالى على عصاة في زماننا ، يجدون فيه الأعوان على العصيان لا على الطاعات ؟!

يا بني ، لكل زمان دولة ورجال ! ولكل زمان مسالكُ وسالكون !

يا بني ، حب الله لعباده أوسع من حب الأم بأبنائها ، أترى كيف تُوسِّعُ الأم لابنها العاصي أبواب المعاذير لتجعله عندها طائعا ، وهي تتضرّر بمعصيته لها ، وتؤذيها مخالفته ، فكيف بمن لا تضره معصية عاصٍ ولا تنفعه طاعة طائع ، وهو أشد حبا لخلقه من الأم بأبنائها ، وهم من أهل توحيده ؟!

يا بني ، ما أقرب الطريق لكل من قصده ، وما أبعده عمن أدبر عنه !

يا بني ، عند الله مغانم كثيرة ، لا تنقبض يداها المبسوطتان عن كل سائل مهما قَصُرت يمينُه ! بل ربما سبق العطاء إلى قصير اليد عند الكريم وتجاوزت طويلَ اليد ؛ لأن قصيرها أحوج !

ثم سكت الشيخ !!

وهناك تهللت وجوه التلاميذ بدموع الرضا والفرح ، واستضاءت بسعة الرجاء في الرحمة ، وانصرفوا راشدين !!

الدعاء بين الثقة بالإجابة والعجب بالإخلاص فيه

قال التلميذ : شيخي ، إذا دعوتُ في قيامي بالليل ، كيف أنجو من العُجب بإخلاصي في الدعاء ؟!

قال الشيخ : يا بُني ، أَلْزِمْ نفسَك دوام الدعاء ، تنجُ من العجب به ؛ فإن المعجب يكتفي من مناجاته بدعائه الذي ظن أنه قد استُجيب له ، فهو كمن يظن شهيق التنفس الواحد مغنيا له عن استمراره في التنفس ، وما علم أن مناجاته هي سبب وجوده ؛ لأنها خلوص عبوديته التي كانت سببَ إيجاده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾!

يا بُني ، راقب نفسك عند الدعاء والتأمين مع الجماعة في التراويح : فإن كنت تظن نفسك من أولاهم إجابة دعاء ، فأنت مريض بالعجب مرضا عضالا ، وإن كنت تظن أنك أقلهم ، وأنك – مع ذلك – ترجو الاستجابة لكونك في صحبة هؤلاء الداعين ، وترجو أن يُستجاب لك ببركة وجودك معهم ، فأنت بعيد عن العجب .

فقال التلميذ : وكيف أصل إلى هذا الحد من البعد عن العجب ، مع وجوب الثقة بإجابة الدعاء ، يا شيخي ؟!

فقال الشيخ : يا بُني ، كنت قد أخبرتك سابقا أن هناك فرقا بين أمرين : الأول : هو الثقة بإجابة الدعاء ثقةً بكرم المدعو سبحانه وتعالى ، والثاني : هو الثقة بإخلاصك وباستحقاقك الاستجابة . فالأول : حسن ظن بالمدعو ، والثاني حسن ظن بالداعي ، وشتان ما بينهما .

فقال التلميذ : وكيف أعلم أن ثقتي باستجابة الدعاء هي عن حسن ظن بالمدعو تعالى وتقدس وليس بالداعي وإخلاصه في الدعاء ؟

فقال الشيخ : إن كانت ثقتك بإجابة أجَلِّ دعاء وأعظمه كثقتك بإجابة ما هو دونه ، فأنت محسن ظنك بالمدعو سبحانه .

قال التلميذ : لم أفهم قصدك يا شيخ ؟

فقال الشيخ : يا بُني ، لا تستكثر أن يغفر الله لكل أهل الإسلام ، ميتهم وحيهم ، عندما تدعو قائلا : "اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات" .

ولا تستبعد أن يستجيب الله لكل مسلم دعواته ، مهما جلت . فرحمة الله أوسع من كل خلقه ، وجوده يغمر مؤمنهم وكافرهم ، ولا تنقص خزائن عطاء الباري بكثرة العطاء وعمومه .

فإن كنتَ – يا بُني – تدعو بحسن الظن هذا ، فأنت تحسن الظن بالمدعو عز وجل لا بالداعي !

فأراد التلميذ أن يسأل ، فقال له الشيخ : يا بُني ، لقد شتت علينا السياسيون أمرنا ، ومشكلة دول الخليج أفسدت علينا روحانية هذا الشهر ، فصرنا نرقب الأخبار ، ونسأل الله الصلاح .

والله يا بني ! لست أرضى عن جوابي لك فيما سبق ، وأرجو أنه لو كان جوابي في غير هذا الوقت العصيب لكان أشفى لقلبك ، لكنه جهد مشتَّت القلب مفتت الهمّ مفرق الفكر !!

فأغضى التلميذ خجلا ، وتمتم يلعن السياسة !

الخشوع في الصلاة وعلاقته بتدبر القرآن والذكر

اجتمع التلامذة حول شيخهم ، آملين أن يجدوا في معارفه ما يضيء لهم طريقهم إلى الله تعالى !

فقال أحدهم : شيخنا ، هل التدبر للقرآن في الصلاة هو الخشوع ؟ أم الخشوع شيء آخر؟

فقال الشيخ : يا بُني ، الخشوع ليس هو التدبر ، الخشوع شيء آخر ؛ لكن التدبر وسيلة الخشوع وطريق إليه .

فقال التلميذ : فما الخشوع في الصلاة إذن ؟!

قال الشيخ : الخشوع هو استحضارك الوقوف بين يدي ملك الملوك الله الذي لا رب سواه ، فكلما استحضرت من جلال ذلك الموقف ، وكلما شغلتك هيبة ذلك اللقاء ، وكلما أسرتك لذة المناجاة ، وكلما شعرت بشرف تلك العتبة التي وصلت إليها = فأنت أخشع .

فقال تلميذ آخر : شيخنا ، وكيف يكون تدبر القرآن الكريم طريقا للخشوع ؟

فقال الشيخ : إن جعلتَه خطابك لمولاك ، وقد بين الحديث القدسي الصحيح هذه الحقيقة، أن وسيلة التدبر للخشوع تكون باستحضارك أنك تخاطب مولاك . فقد قال صلى الله عليه وسلم : "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ الحمد لله رب العالمين﴾ ، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرحمن الرحيم﴾ ، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين﴾، قال: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل،

فإذا قال: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل".

فمن جعل قراءته للقرآن أو إنصاته له في صلاته خطابه لربه عز وجل فقد سلك طريق الخشوع .

فقال تلميذ آخر : شيخنا ، قد أستطيع أن أستحضر الخطاب في آيات الدعاء أو الذكر ، ولكن كيف نجعل تدبرنا خطابا في آيات الأحكام مثلا ؟!

فقال الشيخ : سبحان الله ! في آيات الأحكام أعمق خطاب للعبد مع ربه :

١- ففيها خطاب طلب العون بالإعانة والتوفيق على القيام بأوامر الله والوقوف عند حدوده ، ألا ترى أن مما علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه : "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" .

٢- وفيها حمده تعالى أن أرشدنا بأحكام دينه لما فيه مصالحنا وسعادتنا .

٣- وفيها تسبيحه تعالى لعظيم حكمته بما شرع لنا من محاسن التشريعات التي تدلنا على حكمته ورحمته وعدله عز وجل .

٤- وفيها اختتام بأسمائه وصفاته ﴿ غفور رحيم﴾ و ﴿ عزيز حكيم﴾ ونحو ذلك ، وهذا باب للمناجاة لا يضيق إلا على من ضاقت عليه السموات والأرضين .

ثم قال الشيخ : يا بني ، كل القرآن خطاب الله إليك ، فاجعل جوابك على جليل هذا الخطاب مناجاةَ قلبك وخطابَ لسانك لمولاك !

«الحمد لله مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرض ومِلْءَ ما بينهما ومِلْءَ ما شئتَ مِن شيءٍ بَعْدُ»

قال التلميذ : شيخي ، ما المعنى الذي يجب أن يقع في قلبي عندما أقول : (الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد) ؟ هل أعني بها : ملء ذلك كله أعدادا من التحميدات ؟ فأسأل الله تعالى أن يبارك في حمدي لأجده في صحيفة أعمالي بهذا العدد العظيم ؟

فقال الشيخ : يا بني ، هذا أحد المعاني ، وهو أقل المعاني في درجات الإيمان .

فقال التلميذ : أهذا أقلها ، وهو سؤال لو تحقق لكان أجرا عظيما لا يفوقه أجر ؟!

فقال الشيخ : نعم يا بني ، هو أقلها !

فأعلى منه : أن لا تستحضر الأعداد ، فهذه محاسبة ! إذ لا يحسب إلا من يطلب العوض ، أما من يطلب الفضل ، فلا يليق به الحساب . وما هو الثمن الذي قدمه العبد بالحمد وهو (التوفيق إلى الحمد) إحدى هبات مولاه عز وجل ، حتى يطلب به عوضا ؟!

فقال التلميذ بخجل : وما الأعلى من ذلك يا شيخي ؟!

فقال الشيخ : أن تسأل الله حبا له وامتنانا تضيق به السموات والأرض وما شاء فوقهما ، فينطلق قلبك ولسانك وجوارحك بالحمد من ذلك الحب والامتنان ، فيكون الحمد هو حركتك وسكونك وقيامك وقعودك ونومك ويقظتك وصلاتك وانفتالك منها ، فلا تشعر إلا أنك في سبحات الحمد تحيا ، وفيها تموت .

هذا الحمد يا بني هو أعلى المعاني الإيمانية لذلك الدعاء مما خطر ببال شيخك ، وأما أعلاه مطلقا ، فشيء آخر ، قد يكرمنا الله بالسماع عنه إن لقينا حامل لواء الحمد يوم القيامة : رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستطعنا أن نسأله عن معانيه الأخرى !!

التعرف على الله تعالى هو الذي يُعدِّدُ الطرق إليه سبحانه

قال التلميذ : شيخي ، ما عرفت ما يصلحني من العلم بالله ، وخشيت أن أضل بالطمع في سعة أبواب التعرف إليه تعالى ؟ شيخي ، لقد ضل ناسٌ في المعارف ، فكيف بمن يخشى من الضلال في قِلّةِ المعارف ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، من صَدَقَ في طلبه العلمَ بالله لن يَصُدَّه الله !

يا بني ، الطمع في طلب العلم بالله لا يُضل صاحبه ؛ إلا إن كان طمعا في حطام الدنيا من خلال المعارف الربانية . أما الطمع في طلب العلم بالله .. لله ، فهو لوح المعارف السماوي ، لا تنفك حروفه تتلألأ ، وتدل المهتدي بها ، حتى يذوق من لذة المعارف ما يغنيه عن حطام الدنيا ويشغله عنها .

يا بني ، العلم بالله علم يتسع اتساعا لا يحده حد ، وتتعدد طرقه بتعدد أبواب هذا الاتساع . وإن من قلة العلم بالله أن تظن الطريق إليه تعالى طريقا واحدا ، أو طرقا معدودة . بل هي طرق غير معدودة ، كلها موافقة للشرع الذي دل على اتساعها ذلك الاتساع غير المتناهي !!

فقال التلميذ : شيخي ، كيف تتعدد أبواب العلم بالله ، وفق شرع الله ، والحلال بيّن والحرام بين ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، ومن قال إن ارتكاب الحرام يسد بابك إلى الله ؟! أليست رحمته تسعك وتسع معاصيك ولو كانت تبلغ عنان السماء؟!

يا بني ، لا يسد بابك إلى الله إلا الجهل بالله تعالى !

وللناس أحوال مختلفة في التعرف على ربهم عز وجل .

فمن الناس من يعلم من الله بابا من جلال الملك وعظمة السلطان ، ويستولي ذلك على قلبه . ومن كان من هؤلاء : نجاته في قلة العصيان ، حتى لا يكاد يقدر أن يعصي ، حتى لو أراد ؛ إلا في حالة غفلة شديدة تشبه غفلة السكران .

لكن عليه أن يحذر من اليأس وسوء الظن بربه عز وجل .

ومن الناس من يعلم من الله بابا من سعة رحمته ، وشمول عفوه ، وكمال مغفرته . ومن كان من هؤلاء : نجاته في كثرة الاستغفار ، وإتباع السيئات الحسنات ، حتى لا تكاد تُكتب عليه معصية حتى محتها كلمات استغفاره وقليل من طاعاته ؛ إلا في حالات قليلة من خجل تكرر الذنب ، تستولي عليه ، فتصيبه بحالة يأس من روح الله ، سرعان ما ينقذ نفسه منها بدخول أبواب الرحمة والعفو والغفران التي عرفها من ربه عز وجل .

لكن عليه أن يحذر من التمادي في العصيان الناشئ من قلة الهيبة وضعف الإجلال ، بحجة سعة الرحمة .

ومن الناس من يعلم من الله بابا من الجمال الرباني ، يستضيء بنورها في أعماق قلبه ، فتنقشع عنه الظلمات ، ويتصل بحبل من نور إلى السماء . ومن كان من هؤلاء : نجاته في الحب والشوق لله تعالى ، فقد يذنب ويقصر في الطاعة ، لكنه لا ينفك مشتاقا للقاء الله ، يحب ما قدره الله له من الخير والشر ، يرضى من الله تعالى أن يعاقبه ، لكنه يراه عقوبة الودود المحب ، فلا يراها إلا أنها خير له .

لكن عليه أن يحذر من أن يحب لذة الحب ونشوة الجمال ، فلا يقيم لله وقارا .

يا بني ، أبواب التعرف أوسع من أن تُضيقها منافذُ الشيطان ، وأكرم من أن تصد عنها صادق الرغبة في الدخول ، وأقرب من أن تبتعد عمن جمع همّه للاستئذان عليها !

يا بُني ، احذر من أن تجعل نفسك بوابا عليها ، وحاجبا دونها . فتظن من حقك أن تحكم على أحد أنه يستحق دخولها أو لا يستحق ! فما حُجب أكثر ممن نصّبوا أنفسهم حجابا ، وظنوا أنفسهم حراسا عليها !! فلا والله ، ما جعل الله على أبواب التعرف عليه بوابا ولا حارسا ، ولا احتجب عن عبد من عباده ؛ إلا إن احتجب العبد منه !

يا بني ، انشغل ببابك منه ، تنفتح لك الأبواب ! ولا تشغل نفسك بأبواب الناس ، فينغلق عليك بابك !!

الإفاقة من الغفلات

قال التلميذ : شيخي ، إذا ما أفقت في لحظة من غفلات طالت ، يشككني تمادي غفلاتي في جدوى إفاقتي ، وتقول لي نفسي : هل تظن إفاقة لحظة تنفع مع غفلتك دهرا ؟!

فقال الشيخ : يا بني ، فقل لنفسك : لولا حب الله لي ، لما أكرمني بيقظة لحظة رغم توالي الغفلات ! لولا أنه تعالى وتقدس ينظر إليّ لما أفقت لحظة قط ! فغفلاتي تستوجب طردي أبدا ؛ إلا من نظر الودود سبحانه !

يا بني ، توثق بحبه عز وجل ، فوالله لولا حبه لنا ما ازددنا منه إلا حجبا ، فمن منا لا يستحق الحجب عمن لا يؤدي شيئا من حقه تأبيدُ التعلق به !

يا بني ، أعرف ولدا عاقا في نظر الناس ؛ لأنه كان بعيد التعهد لوالديه زهيدا في القيام بحقهما ، لكنه كان لا يقطعهما تماما . فهل تعلم يا بني أنهما ما غضبا عليه قط ، وكانا كلما زارهما بعد طول انقطاع نسيا حزنهما من فراقه ، وكانت صلة لحظة كفارة قطيعة زمن عندهما ! هكذا يفعل الحب !! هل تعلم أنهما ما أغلقا في وجهه بابا ، رغم أنه هو من كان يوصد بابه دونهما ؟! بل هل تعلم أنهما ما ملّا من استزارته (طلب زيارته) ؟!

هذا حب العبيد ، فكيف بحب ربهم ؟!

أنسيتَ يا بني قوله صلى الله عليه وسلم عن أم تشفق على ولدها أشد الشفقة : «لله أرحم بكم من هذه بولدها» ؟!

يا بني ، علاج تمادي الغفلات ليس في اليأس من فلتات اليقظات ، بل في اغتنام فرصة اليقظة : بتطويلها وتجويدها والتلذذ بها .

يا بني ، دواء الغفلة أن تشعر بها ، فمهما تكرر الداء أو طال . فمن عرف أنه غافل ، فقد عرف الداء والدواء . فإن رجع إليه الداء ، فلا يمنعنّه تكرر الداء من اغتنام الدواء .

يا بني ، رب يقظة لحظة تكون عند الله خيرا من استيقاظ العُمر ، ورب غفلة لحظة تقضي على استيقاظ العمر ! فلا تستخف باللحظات ، خاصة إذا كانت يقظات .

يا بني ، اليقظات نور ، أترى كيف يبدد نور الفتيلة الذابل ظلام الحجرة الواسعة التي تزيد على حجمها بأضعاف المرات ! كذلك يقظة ذابلة تبدد غفلة متمادية !

إذا قمت إلى الصلاة يؤلمني أنني لا يمكنني أن أصل إلى خشوعٍ كنتُ قد ذقتُ حلاوته

قال التلميذ : شيخي ، إذا قمت إلى الصلاة ، يؤلمني أنني لا يمكنني أن أصل إلى خشوعٍ كنتُ قد ذقتُ حلاوته من قبل ، مع شدة حرصي عليه ، وسعيي في جمع هِمّتي إليه !

فقال الشيخ : وتخشى من الحرمان والطرد ؟!

فقال التلميذ منكسرا : لا غير ذلك يخلع قلب المسلم يا شيخي .

فقال الشيخ : يا بني ، لا يُطرد مقبلٌ أبدا ، حتى يغرغر عند الاحتضار أو تطلع الشمس من مغربها ، فعندها ينقطع العمل .

فقال التلميذ : لكن ألا يُعاقب الله على الذنب بالنَّكْت في القلب ؟! ألا يعاقب بالإعراض ؟! ألا يحول الله بين المرء وقلبه ؟!

فقال الشيخ : كل هذا صحيح ، لكنه يزول بالإقبال . فاصدُقْ في الإقبال ، يقبل الله عليك.

فقال التلميذ : ألا يختص ذلك بالتوبة ؟! أليست هي وحدها ما يمنع بقاء عقوبة الذنب ؟! فإذا لم تصح توبتي دامت عقوبته ؟!

فقال الشيخ : لا ، بل قد تزول عقوبة الذنب بأمور عديدة مع التوبة ، وآكدها التوبة ولا شك .

- فتزول عقوبته : بمغفرة الله التي لم يحجرها إلا عن الكافر والمشرك ، ولا سبب لها إلا فيض جوده وسعة مغفرته سبحانه وتعالى .

- وتزول أيضا بالاستغفار الصادق ، ولو لم يتب العبد .

- وتزول كذلك بالحسنات الماحية ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ .

فلا تضع - يا بُني - بينك وبين إقبال عليك ستورا تتوهمها ، ربما كانت من الشيطان ، ليؤيسك من ربك ومولاك ، وانشغل بتمحيص صدقك في الإقبال .

فقال التلميذ : إذن كيف أعرف أني صادق في الإقبال ؟ وإني لأحسب نفسي صادقا !

فقال الشيخ : يا بني ، لا تحمل هم أن تعرف أنت صدقك في الإقبال ، فهذا ليس شأنك أنت ، المهم أن يرى الله تعالى صدقك !

يا بُني ، اصدق الله يصدقك عطاؤه أضعاف صدقك !

يا بُني ، اعلم أن للفُيوض لذائذَ ظاهرةً وخفية ، فقد تستوحش من عدم بلوغك الظاهرة منها ، ولكنك لا تستشعر خفيها .

يا بني ، ألمك من عدم بلوغ لذة المناجاة هو نفسه عبادة ، واحمد الله أنك تستشعرها ، فربما استوحش غيرك من فقدان لذتها !

يا بُني ، رب دمعة حبسها هضم النفس وتواضع العبد ، حيث رأى العبد أنه لا يستحق شرفها ، لا يأسًا ، وإنما تواضعا ، فتكون أصدق من دمعة ذرفها العُجب ، يقول صاحبها لنفسه : أنا من الخاشعين !

ودمعة التواضع المحبوسة خير ألف مرة من دمعة العُجب المسفوحة .

يا بُني ، كم من لذة تكمن في ألم الاستيحاش من فقدان لذة القرب ، ثم : كم من ألم يكمن في لذة !

يا بُني ، لا تتفقد اللذة تفقدها ، ولكن تفقد التقرب يجدك هو .

يا بني ، اصدق الله يصدقك ، امش إليه يأتك هرولة !

ولا تتعجل اللذة ، فربما وجدت لذة تقربك بعد أمد طويل ، وأنت تظن نفسك فاقدها !

ربما وجدتها عند فتنة ، تجد تقربك عندها هو عاصمك منها ، فتجد له لذة تفوق كل لذة .

وربما ادخرت لك لذته لساعة الاحتضار ، وربما في القبر ، وربما في المحشر !

يا بني ، لا تحمل هم استشعار حلاوة الخشوع ، وإنما احمل هم الصدق فيه ، فو الله ما صدق أحد فيه إلا استشعر حلاوته ، وإن ظن نفسه لا يجدها .

ثم سكت الشيخ !

فقام التلميذ : يستمطر الرحمات ، وهو لا يعلم ، ربما كان خائضا فيها إلى حقويه ، وهو يظن نفسه في يباب الجفاف يخطو !

قام وهو عازم على صدق التوجه ، دون انتظار متعة رؤية وجه الصدق !